رجال ما بعد منتصف الليل

رجال ما بعد منتصف الليل

تأليف: خالد أخازي

الناشر: لندن للطباعة والنشر

التصميم: شركة أم بي جي العالمية ـ لندن

تاريخ الطبع: 2021م / 1442هـ ـ لندن

الطبعة الأولى

© حقوق الطبع محفوظة للناشر

First Edition 2021

© All Rights Reserved

No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the writer and publisher.

©حقوق النشر محفوظة

لا يجوز إعادة نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام استرجاع أو إرساله بأي شكل أو بأية وسيلة دون إذن مسبق كتابياً من المؤلف والناشر.

محتوى هذا الكتاب يعبّر عن رأي المؤلف.

ISBN: 978-1-912410-??-?

Printed & Published by:
London Printing & Publishing

Tel: 0044 (0) 20 7289 9009
info@londonbook.uk www.londonbook.uk

خالد أخازي

رجال ما بعد منتصف الليل

رواية

إهـداء

إلى أمي... سر أعراسي

إلى أبي... سر صبري

إلى زوجتي... سر حبري

«مررتُ بدير فيه راهبة، فقلت لها: هل هنا مكان طاهر أصلي فيه؟ فقالت: طهِّر قلبَكَ وصلِّ حيثُ شئتَ».

أبو يزيد البسطامي

1 ◀

جسد متعلق بوميض الحياة الذي يوشك أن ينطفئ، عينان متعبتان تدوران في محجريهما، كأنهما يترقبان زيارة غير مرغوبة... وألم... ألم... يفضح ضعفنا...

المرض يساوي الناس كما الموت، لكنه أقسى درجات الضعف... منتهى القسوة على سرير المرض أن تصبح شيئا بين يدي الطبيب... شيئا منتهية الصلاحية، شيئا غير قابل لإصلاح أعطابه...

أقسى عبارات الطبيب «لا أستطيع فعل شيء...» نموت قبل تتسلل الروح خارج جسدنا مليون مرة، حين نغدو مجرد جسد يفقد وظائفه رويدا رويدا... حين نصير شهداء على انهيارنا... فعلا لا شيء في الحياة يستحق كل هذا الحزن والوجع...

أمي طريحة الفراش منذ شهور، تدنو بألم كتوم من موتها

المحتوم، في صبرها كبرياء وأَنَفَة، تقمع الأنين الذي أراه صارخًا في النظرات المتعَبة، تزمُّ شفتيها زمًّا وتعتصر وهي تهنُّ هنينًا يقطع القلب، ما زال اعتزازها بنفسها يمنحها قدرةً عجيبةً على استقبال الزوار والعوائد ببشاشة وترحاب لا يخلوان من أنَّات مشدودة العنان صبرًا وكبرياءً...

سمعَتْ رأي الطبيب ذلك اليوم الحزين وهو يقول بحيادٍ صقيعي قاتل ويسوي لوحةً مائلة على الجدار: «فعلنا ما كان بإمكاننا فعله، لكن السرطان انتقل بسرعة وشراسة إلى أكثر من عضو... ثلاث عمليات متتالية جراحية... ولم نسيطر عليه... العلاج الكيمياوي، الأدوية تقتل خلايا سرطانية هنا فينتقل الورم بسرعة إلى نسيج آخر... لم تستجب لأي عقار، دورنا الآن هو تخفيف الآلام عنها... لم يبقَ لنا غير المهدئات القوية... خذها للبيت... لا طائل من تضييع الوقت... لا أمل... أنا آسف».

يومها لم تسألني عما قصد الطبيب «كفى تعذيبًا لها...» فقط نظرَتْ إليَّ بحزن وهمهمت: «هي النهاية إذن...». وأشاحت بنظرها المتعب بعيدًا كأنها انقطعت عمَّا حولها، وهوت في قاع عميق، لم أجرؤ على الرد عليها، لم يكن لدي ما يكفي من الشجاعة لأمنحها أملًا مزيفًا، كما دأبت نساء الحي وجارات الدرب على فعله عند كل زيارة تترقبها بشغف وشوق.

كان هذا منذ أسبوع فقط، أصرَّتْ أمي على رؤية طبيب

آخر، تقول وهي تنظر بعيدًا: «العلم بلا بركةٍ لا فائدة منه، لِنرَ طبيبًا فيه بركة..». سُمعة البروفيسور تسبقه أينما حلَّ وارتحل، في عيادته صمت رهيب، وممرضة مرهقة قليلة الصبر، من الصعب أن تجود بابتسامة أو نظرة رحمة، محايدة... تتعامل مع المرضى كزبائن لهم أرقام... ينتظرون الدَّوْر، ومن حين لآخر، تكسر القاعدة من أجل زبون مريض من الدرجة الراقية، أصمتُ لا أريد حربًا غير متوازنة وفي أرض العدو... لن أنتصر فيها، لكنَّ جلالًا ينتفض بغضب محتجًّا على الزبونية حتى في المرض، ويُشهِر صفته كمحامٍ... ويصرخ في وجه الممرضة التي لم تعرف بِمَ ابتُلِيَتْ؛ فحاولَتْ إسكاتَه بصوت خفيض وحَرَج كبير: «يا سيدي... مَن دخل الآن له موعد سابق وحالته حرجة جدًّا..» يرد عليها وقد انتفخت أوداجه واعتصر دمًا وجحظت عيناه، وصار يرغي ويزبد: «يا سيدتي... انظري إليهم... كلهم في حالة حرجة... أم حتى المرضى طبقات... ومواقع...؟» ظهر الطبيب هادئًا متصنِّعًا ابتسامةً صفراء وهو يسوي نظاراته، يتفهم الأمر متظاهرًا بالتذمُّر، يعصر شفته العليا وينهر الممرضة التي هزَّت كتفيها، وربت على كتف جلال معتذرًا: «هؤلاء الممرضات يجتهدن فقط في الوقت غير المناسب... في الحقيقة... الرجل الذي دخل بدون دور في آخر أيامه». أومأت أمي بأصبعها إلى جلال فصمت... وظلَّت عيناه متقدتان كالجمر تشتعلان غضبًا.

هل ربح جلال المعركة...؟ لا أظن، فالطبيب هو أصل

اللعبة، والممرضة بَيْدَق ضعيف على رقعتها، يضحي به كلما اشتدت أزمة، فإن اختلت موازين اللعبة؛ تحمَّلت هي المسؤولية أمام المرضى، وظل الطبيب هو الضحية القديس، وتستمر اللعبة. كَرٌّ وفَرٌّ وضحك على الغوغاء واليائسين... ربح جلال فقط احترامَ أمي وباقي المرضى الذين لم يؤازروه وظلوا يتفرجون كأن الأمر لا يعنيهم.

كان هذا البروفيسور أكثر برودةً من صقيع القارة القطبية الشمالية... تبدد الرجاء في الشفاء.

سمعَتْ قول الطبيب الذي كان منشغلًا بتحرير وصفةِ مهدئات لم تعد كافيةً لتأجيل الألم، ظلَّتْ صامتةً في طريق العودة، تتابع الحياة من نافذة السيارة بشغف غريب، كان جلال يقود السيارة، فالتفت إليها بعدما دس قرصًا صلبًا في القارئ وقال مبتسما: «هذا لكِ يا خالتي..» فارتفعت موسيقى شعبية متناغمة وذوق جيلها وزمنها، شعرت بها تميد خفيفًا متأثرةً باللحن الشجي الذي ينبع من قلب الكمان، فرأيتُ دمعَها يغازل رموشها المتعبة... أما جلال فيعتقد أنه رفَّه عن أمي، والحقيقة أن الأغنية واعتصار الكمان كمدًا هوَيَا بها في حفرة عميقة تشتعل في قعرها الذكريات بحطب الحنين، فتصدع ما بقي من الصبر والأنفة... بكَتْ... وبكيتُ بلا دمع... وصمَتَ جلال... ثم قمعتُ بأصابعي قارئَ الأقراص الصلبة.

منذ فهمتُ الدنيا وأدركتُ الحدَّ الفاصل بين الفضيلة

والرذيلة، خبَتْ مشاعري التي كنتُ أُكِنُّها لأمي وأنا طفل أرتع في عالمها الصاخب، لم أكرهها... ولم أحبها ذاك الحبَّ غيرَ المشروط، الجامح كشلال جبلي... لكني اليوم بكيتُ لبكائها... هل بكيتُ الأمَّ أمِ الإنسانةَ اليائسةَ؟

أمي كانت عاهرةً ووسيطةً للدعارة... ومخبرة...

دارنا كانت مطبخًا لصناعة العار والصمت الأبدي والجنون وإسكات العقول المزعجة...

خبر مرضها غير القابل للعلاج فشا في الدرب وبين النساء والرجال كالنار في الهشيم، تلقَّفَتْه الآذان وبثَّته الألسُنُ بحماسٍ، وزادوا من الخيال ما زادوا، لكنهم ما شمتوا ولا تشفوا، ما زال ظلها يُخيفهم، ربما البتول هي مَن روَّجته وهي تصف حالةَ رفيقةِ دربها المزرية، فهي جزء من تاريخ وزمن أمي، ربما وهي تحكي وتبكي حزنًا على صاحبتها، وقد تكون رقية بنت علوان الأقرع التي تتفرَّغ لأمي مرتين، صباحًا وبعد الغروب، قالوا ما قالوا، وما اختلفوا في هذه العبارات «من عمره طويل دواؤه نخالة... من يدري... للأطباء يخطئون» وعاتبوا بشراسة» لو أخذَتْ دواء أعشاب لما تفاقم المرض... الأطباء لا يريدون غير المال، قد يفتحون البطن ويخيطونه فقط... ويحسبون عليك ما يقهرك..».

جلال زميلي له رؤية أخرى يقول معتدًّا بنفسه بيقين: «السرطان أسطورة... لا يوجد هذا المرض... بل يصنعونه، وحتى

إن وُجد، فدواؤه يعرفونه منذ سنوات، لكن المختبرات تخاف على أرباحها من الأدوية والعلاجات المتوفرة... يا صديقي... المرض أصبح سلعةً... والمرضى أصبحوا زبائن». هذا هو جلال، بالنسبة إليه، تحكمنا الأوهام والأساطير... والغرب يُصدر المرض، ويُنتج الدواء... في دورة إنتاجية رأسمالية عمياء، عقله دائمًا يطرح احتمالَ مؤامرة... كل شيء وراءه مؤامرة...

كلهم يُفتُون الآن في الموت وهم أصحاء أقوياء، هذا على ما يبدون عليه، إن لم تكن أسقامهم وعللهم صامتةً خفيَّة، تُهلِكهم فجأةً، في زمن موت البغتة، لا أحد يعلم منهم أو يتجاهلون أن الموت بالنسبة إلى أمي غدا هو الخلاص والسلام ونهاية الألم والوجع، ورغم ذلك، يدعون لها بالشفاء، بل بطول العمر، يصوغون شفقةً عباراتٍ باردةً مسكوكةً، تبعث على الضجر والتبرُّم، تصيخ أمي لها السمعَ وتبهجها في الحقيقة، تريد أن تسمعها وتتوق إليها بنظرات زائغة، كأنها جرعة مخدر، لا أحد يفقد الأمل في النجاة والشفاء، تظل العقول متعلقة ببصيص أمل حتى آخر رمق، وروح أمي متعلقة حتمًا بخيط رفيع إلى الحياة... إلى رجاءٍ محتمَل في معجزة ترمم كل هذا الخراب الذي طال الجسد، وبعثر وظائفه، فصارت كل قطعة فيه جمرًا يحرق السَّكِينة، ويطرد الغفوة، ويُعجِّل بالرغبة في الرحيل الأخير...

أمي تعلم أن جاراتها فقط يتكلَّمْنَ فقط، يهذينَ ويهذرنَ... يقُلنَ كلامًا من باب المجاملة، أفي الموت أيضا مجاملة...؟

«مِحنةٌ وتمرُّ، وتعودين إلى قوتك وسابق عهدك «نوارة» درب المخزن»...»سحابة صيف وتتلاشى ونراكِ مُشرقةً ضاحكةً..»، «لا تحملي همًّا، فلانة التي تعرفينها... ودَّعناها وداعَ المودع في فراش الموت... وقلنا لن يصبح الصبح عليها، ها هي بعد خمس سنوات بقوة الحصان..». ورغم ذلك تبرق عيناها لحديثهنَّ، وتتوق لزيارتهنَّ تَوقَ الرضيع لثدي أمه.

يا أهل الحي... السرطان لم يترك عضوًا فيها إلا خرَّبه، أي معجزة يمكن أن تُرمم كل هذه الأعطاب؟ وهل مثل أمي بتاريخها الأسود تُغيِّر من أجلها السماءُ قوانينَ الطبيعة والفسيولوجيا؟ للأسف... أسئلة من هذا النوع تتناسل قهرًا وقسرًا في عقلي، لا أستطيع كبحها ولا مراوغتها... عبارات المواساة التي تُصاغ في قالب لغوي واحد نمطي وبارد ومستهلَك تُرهقني نفسيًّا لا أكثر... لازمتهم جميعًا رجالًا ونساءً العارية المشتركة حد الضجر «امرأة... طيبة... لم نر منها إلا الخير... من أهل الجنة...»، تغدو مع الوقت بلا معنى، بل تفجر في التذمر من هذا العبث... أناجي نفسي: «يا هذا... دعهم يقوموا بالواجب. دعهم... لكن ما هذا العبث...؟ كيف استطاعوا أن يقرروا مصيرها بعبارة مسكوكة وهي نفسها خائفة متوجِّسة من المآل والإياب بقلق يتمرَّد على الكبح، ألتقط همسها كأنها في مناجاة «لم يبق لي غير فضل ورحمة الله، أما الحساب... إيه... الحساب... اللهم جنبني إياها..».

يا أمي... لن يدخل أحد الجنة بعمله ولا بعبادته ولا

بدعائه، الله غني عنا ونحن الفقراء إليه... لكن ندخلها فضلًا ورحمة منه... أود أن أقول لها ذلك لكني استكثرت الأمر عليها فصمَتُّ...

ما أقساني سامحني يا رب... !

ليتهن قعدنَ في دُورِهنَّ وخفَّفنَ من هذه الزيارات التي لا تُجدِي نفعًا، بل تزيد أمي قهرًا، وتزيدني ضجرًا...

جلال زميلي وصديقي... يقول حين يتحدث عن الموت: «نحن نخاف من الموت، وحين يشرف أحدنا على الرحيل، نزوره لنستأنس ونألف وجه الموت ونُطبِّع معه العلاقة... نراه جليًّا في عيون المرضى الميؤوس منهم، والنساء لا يبكينَ يا صديقي حزنًا على الميت، بل تنفيسًا عن قهرهم، الجنازات عيادة نفسية جماعية للنائحات يا صديقي... ويوم يُرفع القهر عن المرأة... تقلُّ النائحات..» أسمعه دومًا بانبهار ثم بتوجُّس، حين أتخيَّل زوجته أكبر نائحةٍ، فهي في سجن مخملي كبير، لم تدخله عقيدة جلال بعدُ... لمَ لا أجرؤ على الجهر برأيي في وجه جلال؟ ربما هو أكثر من صديق، وأقلُّ من أب... أجده دومًا في عقلي، يسبق أفكاري، فيصبغها بلونه وأقواله، وإن كنتُ أعلم أنه لا يرتدي معطفًا يوصي به غيره.

جلال حكيمٌ في الحانات، مناضلٌ في المسيرات، يساريٌّ على المنصَّات، خطيب الحريات تَقدُّميٌّ في المنتديات، حَداثِيٌّ في المواخير، ضائعٌ بين التقاليد والعادات، وفي عالمه الخاص

الضيِّق تسكنه الأعراف التي يُعطلها في الخمارات والمنابر، متوجِّس تحطب من غاباته المتوارية فؤوس المفارقات القاتلة لتُلهب جحيمه الصامت، فيكتفي بمراقبة التحول في حياة الآخرين لا في حياته الداخلية... قد يقاطعك دفاعًا عن عاهرةٍ أهنْتَ أنوثتَها وكرامتَها، لكن قد يضرب زوجته من أجل نافذة مطلة على الشارع مفتوحة...

سألَتْه ساقيةُ المشرب نادية ذات ليلة وقد استغلَّتْ سُكرَه الطافحَ متجاسرةً: «صِف لي زوجتك... يا جلال»... حملق فيها لبرهةٍ، كأنه يرتب أفكاره وقال مقهقهًا: «وهل أنا متزوج... يا حمقاء...؟» ارتفع الضحك واختلط بالصخب ورفع الأنخاب ثم أضاف بزهو: «هي صهباء، طويلة، نحيلة لكن ممتلئة، ناهد، فاتنة عيناها...». قاطعته نادية وهي تميد بجسمها: «هي حورية البحر إذن..» فقهقه الجميع، ثم تبدَّد الضحك وهو ينهر الجميع بنظراتٍ قاسية مردِّدًا: «ربما هي جنية تظهر وتختفي... يا متخلفين...».

نعم هي جميلة حتمًا، فنساء الشمال جميلات وساحرات وشقراوات... لكن حتمًا معذَّبَة في أَسْرِه... سألتُه يومًا وندمتُ وكان صاحيًا: « يا جلال... أحق أن كل رجل يبحث عن صورة أمه في باقي النساء... ولا بد أن يعشق امرأةً فيها شيء من أمه...؟» انتفض واقفًا وزمجر غاضبًا حتى تغيَّرت ملامح وجهه مرددًا: «كلام فارغ... لا أحد يبحث عن صورة أمه في النساء... الطهرانية أسطورة... وأنا شخصيًّا أمي تُذكِّرني بالبؤس

والتخلُّف... وبعض البائسين ليسوا ضحايا... بل هم جزء من جحيمهم... لأنهم كانوا حطبًا له..».

«هي الأم يا جلال... كيف تغدو عندكَ صورةً للبؤس...؟ هي الأم منبع الطهرانية... ماذا أقول أنا... وأمي عاهرة محترفة سابقة، ووسيطة مشهورة، ومخبرة معلومة...؟». كعادتي أكتفي بالحوار الداخلي، وأتفادى مراجعةَ جلال في رأيه، ربما يكون على حق... وزاوية النظر عندي معتمة أو مائلة عن أفق النظر الصحيح السليم.

ذاك زميلي على كل حال... نعمل معًا في مكتب محاماة... هو أكثر من صديق وأقلُّ من أب... لهذا أكتفي بالإصغاء إليه دون اعتراض... قد لا أتفق معه، لكن أشكُّ في حقيقتي، وأنتصر لباطله، كمُريد في زاويةٍ نائية، أو مناضل مبتدئ في حضرة زعيم مفوَّه...

«الجيران إمَّا لكَ أو عليكَ أو هما معًا...». خيرٌ لك أن تكون بلا جيران... الجوار تبدَّد مع العالم القديم... مع زحف السكن العمودي أصبح الجوار بلا حوار ولا عزاء ولا تحيات تنبع من القلب... أصبحنا نُقيم في عُلَب باردة، بردت فينا العواطف، وزاد مِن قُر أحاسيسنا رِق البنوك والديون... إننا نعيش كما يريدون... نُفرِغ كل طاقتنا في موازنات قاسية لميزانية البيت... نُستنزَف فلا نصلح لشيء... لا لسياسة ولا لمضاجعة... صرنا مُتعَبين... نرنو غفوةً في بيوتنا بعيدًا عن ضجيج الحافلات

وعُنف الشوارع..». مَن قال هذا...؟ لا أذكر... ربما سِكّير عابر قاسمته كأسًا على المشرب.

قال جلال عنه ليلتها ساخرًا بابتسامة شاحبة: «لا أحب سماع صوت الكسالى والبكائين... هو جزء من الأزمة ولا يدري أو لا يريد أن يدري... المصيبة إن كان يعرف ويتباكى... ينقصه الوعي بألمه ليغير وضعه أو يستريح على الأقل..».

جلال يسكنني ويحضر في عقلي كل لحظة... وتُرفع له الأنخاب... ولأنه يردُّ النخب كرمًا بلا حدود... هم يُحبون حقيقته... يتقاتلون من أجلها في الصفوف الأولى... ثم يستريحون على الطاولات وهو يسقيهم خمرًا ويُطعمهم وهم في حضرة السحر والذهول.

هؤلاء الجيران جيراني وجيران جيراني، كيف ركبهم هذا الحماس الجارف فجأةً فما انقطعوا رجالًا ونساءً عن زيارتها وهي لا تكاد تُميِّز أكثرَهم؟ أكاد أشك في نواياهم، فربما هم هنا ليروا أثر انتقام السماء جليًّا في آخر العمر من نساء البغاء، لتغدو موضوعَ حديثِ المساء، وسرًّا من أسرار الخفاء، ربما هم هنا يدفعهم الفضول الحارق ليروا كيف حطَّم هذا المرض اللعين أسطورةَ درب المخزن، المرأة القوية التي كان يهابها الصغير والكبير...

من الممكن أنَّ مِن بينهم ـ وخصوصًا النساء ـ مَن جئن ليُصفِّينَ حسابًا قديمًا، ليتخلَّصنَ من هزائم قديمة، بطَعْن

الجثة المتعفنة بسكاكين الشماتة الكتومة الضربات، أو على الأقل بالتلذُّذ برؤية الضعف والانهيار وهما يُسقِطان امرأةً قوية وَهَنًا وذُلًّا...

ألم تقل أمي وبصرها زائغ من التعب: «يا إبراهيم... المرض ذُلٌّ لمثيلاتي، أشعر بالضعف يُمرِّغ كرامتي في التراب كلما زارتني النساء... لكني أرتاح لوجودهنَّ ولكلامهنَّ..»؟ تمنيتُ أن أقول لها: إن في المرضِ المغفرةَ والثوابَ، بيدَ أنني بخُبث لم أعهده فيَّ صُمْتُ عن منحها هذه السَّكِينة... هل أكرهها...؟ لا أعلم... ولكني أتألم لآلامها، وأُعَذَّب ضِعف عذابها، أي شعور هذا يُعلِّقني في الوسط بين كراهية غير قادرة أن تتشكَّل وحُبٍّ يفرض نفسه دمعًا ونحيبًا ووجعًا... هي أمي أيها العالم... أريد أن أحبها بلا تحفظ...

لم يكن لأمي أعداء ولا خصوم، هل كان حبُّ الناس وتوقيرهم رياءً وضعفًا وخوفًا وتقيةً؟ فقد عاشت متسلطة جبَّارة غير ظالمة، لكنها محبوبة ومُهابَة الجانب، قوية لا تُغلب ولا تُقهَر، يدها طويلة مع الشرطة وفي المحاكم، ومعارفها كثيرون في أرفع المواقع والمناصب...

ها أنت أمامي يا أمي تغزلين ثوب الصبر بالدعاء، وترممين شظايا الروح بالرجاء، وأكبر أمانيكِ أن تظلِّي واعيةً قادرةً على التوحيد وأنت تُسلِمين الروح، من حينٍ لآخر ترفعين السبابة كأنكِ في تمرين تنطقين الشهادتَيْن وتخافين أن يُباغتك الموت دون إشارات أولية...

توزِّعين الآن النظرَ في الغرفة، كأن صخب الماضي الماجن وظلال الأجساد العارية ما زالا عالقَيْن بالجدران والخيال.

يا ليتني كنتُ في عقلها لأسمع ضجيج الروح وأسرار البوح...

ضاقت أنفاس أمي، فضاقت الدنيا أمام عيني، غدَتْ تزحَرُ بوَهَنٍ من أبسط حركة، فغدوتُ مرهَقًا، اشتدَّ عليها المرض اللعين، استنزف الخبيث طاقتَها استنزافًا بطيئًا خليةً خليةً، متوغِّلًا بأضراره في خرائط الجسد مخربًا كلَّ تضاريسه أينما حلَّ، تقاوم أوجاعَها الحادَّة أنينًا مخنوقًا وهنينًا مقموعًا بكبرياء عنيد، عافت الطعام إلا من جرعة ماء أو شربة حساء يردُّهما جوفُها فتُفرغهما قيئًا فورًا...

أما أنا فتائه بين وجودٍ صار مؤلـمًا لا رجاء فيه غير الموت السريع، ورحمة تلتمس بقاءً لم يعد مُجديًا، ومن حين لآخر، يصير رجاءُ موتها سريعًا أقوى من أي شعور آخر، يُعزِّزه عارٌ يُربكني من سيرتها وتاريخها الثقيلَيْن كعاهرة ووسيطة دعارة سابقة، وخزي يهوي بقوة وجنون بي نحو عتمة العقوق الصامت، لكني... أتألم... أتعذب...

مضطربًا أدبر تناقضاتي الداخلية، الحزن أقلُّ درجات الانشطار الوجداني، لستُ حزينًا، لا أحد يصف موتَه الداخليَّ وهو يرى أمه تتوجَّع في رحلتها الأخيرة بالحزن، الألم العميق الذي يُفتت الكبد ويعصر القلب، أدنى درجات ما ينتابني الساعة من لواعج هو تيه المشاعر...

أمي كانت عاهرةً ثم وسيطةً ومخبرة... لم أكْرَهْها ولم أُقدِّسها... الأم تستحقُّ أكثر من الحب والبِر... الأم تُقدَّس... لكن عليها أن تكون جديرةً بالأمومة، فالأمومة لا تعني الإنجاب، الأمومة خيمةٌ في القيظ، واحةٌ في الصحاري، عينُ ماء في الفيافي، دِثارٌ دافئ في القُرِّ، الأمومة عزاءٌ، وبهاءٌ، وضياء...

هل أمي عبرت نحو ملكوت الأمومة لحظةَ أنجبتني؟ ليس كل مَن يَلِدنَ يَصرْنَ أمهاتٍ... بعضهن فقط والِداتٌ...

في قلبي شعور غامض مُبهَم، لم يرْقَ إلى مستوى الضغينة، ولكنه أقرب إلى الخيبة والحسرة، الحقيقة أني لم أميِّزه بعدُ... منذ وعيْتُ وبدأتُ أفهم جغرافيا الفضيلة والرذيلة، اضطربَتِ المشاعر في صدري، وضاع عقلي بين مواقف شتى لم ترسُ يومًا على رصيفٍ آمن، كنتُ غاضبًا مِن وضعي، خانعًا في الوقت نفسه لقَدَري... فتحت عيني في دار بغاء، ربما كوني نشأتُ فيها وبين صَخَبها، مما خفف صدمتي وعقدي...

ما زلتُ ألتمس لها الأعذار في الأقدار...

ما فتِئتُ أُبرِّر عاري بقدري في أسراري...

العالم قاسٍ يا صاحبي.

وحده جلال زميلي يلغي القدر، ويقحم الغفر والعسس والقهر... هل يُخفِّف عني مصيبتي أم هو صادق...؟ الحقيقة أن جلالا لا شيء عنه ثابت، يُجيد العزاء كما يجيد الرياء... وليكن كاذبًا... بعضُ الكذب يُريح... وبعضُ الحقائق جحيم...

جلال يسكن عقلي... هو زميلي وصنمي... جلال... وأنا... معا دوما في مكان ما مشترك، يلغي الخرائط والزمن والجغرافيا... لكنه في قمة جبل يقوم شطحات الأقدار، ويرغمني على الصمت، كناسك في معبد الاعتراف.

2 ◀

تريد أمي أن تقول شيئًا...

القول غدا حُلمًا، اللسان يهرب منها، يخذلها الهواء والنداء، فالحروف كي تخرج عارية سخية عليها أن تعبر دفعًا زحمة المعاني في الخيال، وتركب صهوة التيار والخيار، الخيالُ مرهق خائف، والخيار عندها ضيق آبِقٌ، تجاهد لتركب كلماتها المتعبة، تجحظ عيناها، تئِنُّ بكبرياء، يمتقع الوجه، ترتعش الشفتان... تهمس وهي تمضغ كل حرف مجهد:

«خذني عند خالَيْك، أريد الموت في أرض الأجداد، وأُدفن هناك... ما عاد لي مقام هنا في هذه المدينة الحالكة..».

يا مدينة الأولياء والأهواء... أنتِ تصلحين لكل شيء إلا للموت، مقابرُكِ بعيدة موغلة في الغربة والوحشة، مقابركِ امتداد لظلمة الوجود، مقابركِ غُربة أخرى في فسيفساء القهر،

فيكِ تختلف القبور باختلاف الجاه الفاني، وتختلف مساحة الموت باختلاف مساحات الحياة، وهناك في الهضبة الحمراء حيث أصلُكِ ومسقط رأسكِ المفترضان تستوي القبور والتراب حدَّ التلاشي...

الدار البيضاء... المدينة الغانية والناسكة... العاهرة والعابدة... الفقيرة والغنية... غجرية الصخب، قديسة الصمت... ترحل من خرائط وجدان أمي قبل أن ترحل هي من جغرافيا الوجود السفلي.

أنتظر أمام عتبة الدار زيارةَ صديقي جوزيف وزوجته كاميليا اليوم... آه... جوزيف يتحدث كثيرًا عن الغربة والاغتراب... يقول دائما جوزيف «غريب يعود للنبع... لا أحد يظل منفيًّا للأبد... النزوح مؤقت... الهجرة بالذات المتجلية لا بالذات الكامنة وراء الحنين والشوق... المهجَّرون قسرًا يسكنون أوطانهم خيالًا ورقصًا وحزنًا وطعامًا ولباسًا وخوفًا وعشقًا... يظل الوطن يتسكَّع فيهم حتى ينام في أحلامهم... لا أحد ينسى وطنه، يستحضره في الغربة على مائدة الطعام، يحزن كما يحزن الوطن، يرقص كما يرقص الوطن... يموت كما تموت الأشجار في بلدته...».

أمي تحب جوزيف وهو سوري من اللاذقية، وتحب زوجته كاميليا الفلسطينية بنت بيت لحم، تحب أن تسمع لكنتهما، وتذوق أطعمتهما، تعرَّفْتُ عليهما في مؤازرة قضائية لهما في

قضية طلب إقامة قانونية، وقد هَجَّرَتْهما الحرب من سوريا والدولة تعتبرهما لاجئين، وكانا يشتغلان قبلُ في مدينة «دير الزور» بالقطاع الصحي قبل أن تدمرها الحرب، هو طبيب عيون وهي ممرضة تخدير. وصفة لاجئ لن تمنحهما الحقَّ في العمل، وفعلًا نجحتُ في انتزاع الإقامة القانونية لهما، ففتح عيادةً بعد ستة أشهر، واستمرَّت علاقتنا... جويف وكاميليا خبِرَا الغربة ومآسيها، كاميليا لها نظرة أخرى فهي تقول: «الوطن العربي ليس بلدَ غربةٍ ولا هجرة..». جوزيف عقلاني يبتسم بسخرية ويقول لها: «يا كاميليا... أنتِ حالمة ورومانسية... إننا وقفنا على حدود الوطن العربي... أكثرَ ما نقف على حدود أوروبا وأمريكا، ليس هناك وطن عربي، ذاك خيال أو حلم تبدَّد مع الزمن... ربما هناك شعب عربي، لكن ليس هناك وطن عربي، ربما هناك وجدان عربي، لكن ليس هناك وطن عربي..».

قبل أن يخطُوَا خارج الدار بتُؤدةٍ ورَويَّة، كأنهما في غمامة سوداء داكنة ثقيلة مطرقَيِ الجبينَيْن، قال جوزيف بحسرة وحزن: «يا صديقي... إنها تموت بصمت، وكلَّمتني كثيرًا عن بلدتها الأصلية... تريد العودة... رجاءً فكِّر في الأمر..». اكتفت كاميليا بذرف الدموع وهي تمسح مخاطها ثم قالت متأثرة: «يا إبراهيم... داخل كل وطن للإنسان دائمًا وطن آخر... خذها إلى هناك رجاءً..».

وطن واحد وتعددت الأوطان... يا لجنون الإنسان... أناجي نفسي، وأختفي في ليل حزني.

يختفيان فيزحف الاضطراب إلى نفسي... وأغدو حائرًا... أتابع أمي في أدق حركاتها من وراء شباك النافذة المفتوحة على الزقاق من الخارج، تتقلَّب ألـمًا على السرير، يمتلئ البيتُ بالزائرات العائدات من الجيران... هذا حاله بعد الظهيرة، يتحدَّثن بضوضاء وصخبٍ، يقُمن ببعض أعمال البيت، لكن أمي لم تعد تسمح لهن بالاقتراب من جسدها، عدا مسح وجهها وجبهتها بمنديلٍ مبلَّل، يواسين بعباراتٍ منتهية الصلاحية، لم تعد صالحةً لهذا الزمن من المرض المخرِّب، يدعينَ لها بالشفاء وهُنَّ على يقين أنها في محطتها الأخيرة، أدخِّنُ حتى تجفَّ حنجرتي، فأرطب ممر الدخان باحتساء قهوةٍ مُرَّة، تلِجُ نساءٌ وتخرج أخريات بعضهن مُطرقاتُ الجبين، لكن يسرقن نظرةً سريعةً كافيةً صوبي، وبعضهن وخصوصًا الأمهات مَن ترافقهن فتياتٌ في عمر الزواج يقفن طويلًا، ويُسلِّمنَ داعيات لأمي مُعَدِّدات مناقبَها وأفضالها، وبناتهن يبكين لحال أمي، يدخلن مضطرباتٍ ويغادرن منتحباتٍ، تنوء أكتافهنَّ بغَمٍّ ثقيل... وتخيم على العيون معالم الخوف والرهبة، يترك بعضهن أطفالهن خارجًا... يتلصَّصُ المشاغبون منهم على شكل الموت وصورته على سرير أمي، يركبهم الخوف من شبح الوجود الخَرِب، يهربون كأنهم رأوا شيطانًا - لم أرَ الشيطانَ أبدًا، لكن لكلٍّ منا صورة مخيفة عنه- جلال يحضر في عقلي هذه اللحظة... على المشرب ردد ذات ليلةٍ والكأس تتراقص بين أصابعه: «الشيطان لا بد أن يكون جميلًا... نعم... فقد كان عابدًا في مملكة الربِّ

العليا، كان في الملكوت الأعلى قبل أن يُطرَد، ويُلعن... لا يمكن للقُبح أن يوجد في الملكوت الأعلى..» وقلتُ له يومذاك: «كيف تعرفُ الجمال؟ ما هي الحدود الفاصلة بين القُبح والجمال؟ أليس الأمر نسبيًّا مرتبطًا بالقيم الجمالية الحضارية والثقافية؟ يا جلال... حذاء قديم للرسام، صار بؤرة الجمال في لوحة فان غوخ، عارضات الأزياء الجميلات في بلدي غير مثيرات لأكثر الرجال، فهن غير سمينات وأردافهن ضامرة، وصدورهن نحيلة غير ناهدات، الجمال نسبي... يا جلال...» كالعادة... لم أتلقَّ جوابًا، لأني لا أواجه جلالًا ولا أقارعه فكريًّا إلا في عقلي أو مناجاةً في خاطري، ليس خوفًا ولا ضعفًا، بل لإحساسي بعدم الجدوى، فجلال لا يُقهر، ولا يُغلَب، ويُدافع عن وجهة نظره كسفسطائي يوناني... ينتصر للذات لا للفكر...

ربما ظلمت السفسطائيين... عذرا فهم من أخرجوا الفلسفة من كحافل الخاصة... محاصة الخاصة... نحو الأسواق... وحلقات الشعب...

هو أكثر من صديق... وأقلُّ من أب...

أمي... يا عالم... كانت عاهرة... ثم وسيطة دعارة... وقدَّمت خدمات كبرى لأبالسة الدنيا وإبليس الآخرة... لكنها أمي... وأنا ضائع بين شفقة خجولة وحقد متردد.

هل تصالحَتْ مع نفسها وغسلَتْ عقلها من صور الماضي؟ هل يكفيها رواء مكة ونور المدينة المنورة، لتغسل القلبَ من

وجع الإحساس الطافح بالذنب؟

ها هي منذ شعرَتْ بدُنُوِّ الأجل، أخرجت من وجعها الدفين كلَّ تجليات غربتها المتوارية، ما انفكَّتْ تُردد بحزن واضطراب: «صرنا غرباء، غرباء... في مدينة رحلت عنا برحيل الناس»

أمي سكنت الدار البيضاء، من خلال عيون أهلها، وضجيج أطفالها، وعبث أسواقها، وبياض حيطانها، وضباب مرساها، وصخب دارها، وألغاز بحَّارتها، أمي هربت عنها مدينتها يوم غيروا الدروب والسقوف واغتالوا الحدائق القديمة، ومهَّدوا الطرق لسياح يأخذون صورًا لها ولنساء المدينة القديمة أمام «السقاية» كطَلَلٍ لعالم انتهى، وما يزال يغري العَجَم بالسحر والغرابة.

نعم... دار أمي كانت وكرًا للدعارة وخفايا أخرى، تتقاسم أسرارها ورجال العهد البائد... لو علم العَجَم قصتها، لصارت نجمةً على صحيفة عالمية، أو بطلَ كتابٍ لصحفي أصهب مغامر...

مآسينا... عُهرنا... فقرنا... موتنا... فضائحنا... عوراتنا... – لا أقصد المرأة يا جلال... - سلعة غالية في سوق الصحافة والكتابة العابرة للوجدان والخرائط...

قبل أن تلزم أمي الفراش، لزمت لسانَها جُمَل تُكررها حدَّ الضجر: «صرنا غرباء... كيف أموت هنا بعيدًا غريبةً...»؟

يا أمي... لا أحد يموت غريبًا في وطنه... لا تصدقني...

والغربة عندها غربة الوجوه الجديدة، والعمران الكئيب، والأزقة التي صارت باردة مخيفة...

لا يليق بنا أن نموت غرباء في وطننا، فيا صبرَ مَن اغتُصبت أوطانهم، وشُرِّدوا، وهم مضطرون للموت مرتين، موتهم العادي، وموتهم في الغربة...

الدار البيضاء ترحل باكرًا عن أعراسنا، تصير خيمةَ جنازةٍ كبرى، كلما ازدادت ظلال شباب بلا عمل على نواصي الأحياء، تمدَّد الخوف والرعب، وكلما انتشر خبر موت المهاجرين السريين غرقًا وعارًا، ماتت العذارى في الأمومة.

ها أنتِ يا قلعة الصخب واللغب، تصيرين في لُجَّة اضطرابِ يَمٍّ احتضار أمي، شاطئًا صخريًّا بلا منارةِ ضوءٍ، محطةَ قطارٍ باردةً في بلدة نائية، لا تريدها أن تكون الأخيرة في رحلتها، كأنها يعوزها السر البهي للوداع الجميل...

المدينة التي كانت لا تبيت إلا فيها، إن أقامت في غيرها ليلةً واحدة ضَجِرَتْ واكتأبَتْ واستعجلَتِ العودةَ، وتُصاب بالأرق والقلق، فإن سافرت لأمرٍ ما كُرها واضطرارًا؛ عادت إليها مشتاقةً متذمِّرة، تشكو مَللًا لا تشعره إلا حين تخطو خارجَها، غدَتِ الآنَ في عينيها سوداء كئيبةً، وغير جديرة بجثمانها...

3 ◀

جوزيف هام بالدار البيضاء ومرساها وقلعتها ودروبها، هيام العاشق الولهان، حتى سكنته بمَوْجها وصخَبها وناسها، يقول: إنها وجودٌ جميل، متنوع، ساحر، يحمله بروائحه إلى اللاذقية، ربما البحر الذي يتسكَّع فينا نحن أبناءَ المدينة القديمة، هو نفسه الذي يسكنه وهو في الغُربة، أليس للبحر الأبيض المتوسط بصمة أخرى تحت الجلد، ووشمٌ في الروح والعقل؟... البحر الأبيض المتوسط هوية تخترق هويات متعددة... كنهر النيل وغابات الأمازون... قال جوزيف يومًا وهو يلعن الحرب: «إن سحنات الناس هنا لا تختلف عن سحنات أهل دمشق وحلب وحماة واللاذقية... مما يُخفف الغربة ووجع المنفى». تتربص بلسانه كاميليا وتقول له بنشوةٍ: «ذاك هو الوطن العربي»... ويُذكِّرها بقوةِ برهانٍ وسلطةِ حُجةٍ أن أمَّه كردية وهي شامية في الوقت نفسه، وأن العالم العربي يُقصِي أكثرَ ما يجمع،

والمصطلح مُغْرٍ لكنه غير واقعي، واستنفد زمنَه... فتضحك بنشوة ودلال وتقول: «يا أحمق... الوطن العربي ليس تجمُّعًا عِرقيًّا... إنه... كتلة تاريخية موحَّدة المصير... فيها الكردي، والأمازيغي، والعربي، والكنعاني، والشركسي، والسرياني... و... التَّفتُّتُ العِرقيُّ هو تخطيطٌ استعماري لضرب إرادة الشعوب وإضعافها... وحدة المصير أعلى مما تقوله جيناتٌ غبيَّة... التسمية وظيفيَّة حضارية وليست جغرافية عرقية..».

غالبا ما تُفحمه فيصمُت... أما هي، فتلمع عيناها، وترسم قُبلة على شفته، ينشرح دائمًا لقُبلتها التي تلأَمُ اختلافَهما، وتُرمِّم كلَّ شرخ محتمَل، فيقرأ لها قصيدةَ بشارة الخوري الملقب بالأخطل الصغير، ثم يغنيها متماهيًا بانسجام مع فريد الأطرش:

عِــشْ أنــتَ إنّــي مــتُّ بعدك

وأطِــلْ إلــى مــا شــئتَ صدَّك

نظرت كاميليا إليه لوت شفتيها وقالت وهي تبتسم ابتسامةً عابرةً ساخرة: «لمطرب مصري أصله شامي، وقصيدة لشاعر شامي لم يبايع أحمد شوقي بالإمارة... يا لَك من داهية...»؟

يكتفي بالنظر إليها بذهول وهو يردد بذهول: «والله لم أقصد... لو أحفظ أغنية مغربية لغنيتها لكِ... يا حمقاء... نحن في كازابلانكا مدينة الحلم...».

يا جوزيف يا ابن الشام الغالي... من يكره الدار البيضاء...؟

كأنه سمعني في مناجاتي، فأقرأ في عينيه قولًا صامتًا: «يا صاحبي... ودمشق... وبغداد... وعدن... والخرطوم... وطرابلس...».

الكل ينكثُ عهودَه معك يا مدينتي، ويمضي للموت بعيدًا عنكِ... وتصبحين أرض العبور لا مهد الروح... ما أغربنا... ما زالت القبيلة تسكننا... وأنتِ يا مدينتي أكبر من قبيلة، لكنكِ لا تصلحين لنصب خيمةٍ للعزاء.

إن جاع الجياعُ والمقهورون والمفلسون والمنبوذون في البوادي والأرياف قصدوك... وإن امتلأتِ حد القيء بما جمعتِ من أعراقٍ وأطيافٍ؛ سبَّك الجميع، ولعنك العابر والمقيم، وإن قستِ الظروف على أهلك وانتفضتِ غدوت مدينة الغوغاء والدهماء، مدينة تستحق العقاب علنا، فغسلوا غضبك بخراطيم المياه، والرصاص الملعلع، وأنزلوا المسوخ الحديدية للدروب... وفتحوا المعاقل والمنافي...

يا جلال... ألم تقل على المشرب للساقية الجميلة وهي تشكو ظلم أهلها: «إن لا مجدَ للحواضر... ولا عارَ للمدن... المجدُ قَبَلي المحيَّا... والعارُ قَبَلي الحمية... الحواضر تعمى عن العار... والقبيلة جحيمها هو العارُ... اشترِ مجدَكَ بقليل من المال..».

وحين ترافع في قضية أخٍ قتل شقيقته باسم الشرف بأحد أحياء الدار البيضاء، دافع عن القاتل وقال لي يومذاك: «القبيلة

تتبعنا.... القبيلة تسكننا...» وأشار إلى دماغه وقال: «هي هنا...»

كانت أمي تسمي الدار البيضاء أمًّا لا تردُّ أحدًا، وزاويةً تُطعِم الجميع... وسقفًا ينام تحته المنفيون والفقراء والطرداء.... فكيف خرجتِ أيتها المدينة المظلومة من قلبِها لحد وصفك بالظلماء.

أولئك الجياع والمزارعون والمفلسون والمقهورون أنفسهم الذين حلُّوا بأرضكِ سنوات القحط، ما إن استقروا بكِ حتى توزعوا شِيعًا، فريق كلما غضبَ منكِ صِرْتِ في عينه عاهرةً، وفريق اغتنى فصرتِ في عينه لا تُطاقين، وضاق ذرعًا بالمنبوذين والمتشردين والفقراء، فابتعدَ عنكِ وتقلَّب في النِّعَم في ضياعٍ في تخومِكِ، أو فيلات في ضواحيكِ... وفريق ضاع فيكِ وضعتِ فيه، وليس له غير مجدِ الانتماء والهوية، وهل للدار البيضاء هوية؟

أمي التحقت بالغاضبين من مدينة الخبز والماء والملح والنعناع... أمي أفقدَها المرضُ عقلَها، أم أعاد إليها عقلَها؟

ماذا وقع...؟

لِـمَ كلُّ الجحود والعقوق في حق مدينةٍ منحتِ الكلَّ الرغيف والرصيف والرفيق والستر العفيف؟

حتى أنتِ يا أمي...

حين تشتهي الحاجة ربيعة أي أمي رائحةَ وصخبَ زمنٍ

مضى، تصف الدار البيضاء بالعاهرة الفاتحة باب دراها للغرباء والصعاليك والمجانين واللصوص. وقطاع الطرق... وحين تشفق على المدينة تعدُّها قِبلةَ الضعفاء والفقراء، ودارا لكل ذي حاجة وفاقة، وما أغضبَها غيرُ تبدُّل الأحوال وتبدُّد الأعراف والأصحاب، ورحيلُ الجيران القُدامى، وموتُ أكثرِ «أهل زمنها»، وتلاشي عاداتِ وتقاليدِ حُسنِ الجوار، واندثار عاداتٍ تفتقدها بأسًى كإعارة الماعون والشمع والقوت والصابون، ومساعدة الناس زمن الفجيعة، وخبو رائحةِ الخبز الطازج في الأفران، برحيل صاحب الطاحونة «المعلم عباس»، وحلول أكياس الدقيق عوض القمح والشعر المخيشَيْن في الجوالق والغرائر، وانعزال الناس، وتناسل التوجُّس والحذر في النفوس، وتمدُّد العمران الجديد الذي غيَّر خرائط الوجدان والعقل ومسخ عفوية الوشائج والعلاقات ووأدُ تلقائية الزيارات بلا مواعد ولا أسباب ولا مناسبات، فكل الدور كانت مفتوحةً على بعضها البعض، والأبواب قلَّما تغلق.

وليكن... ما زلنا هنا... وما زلتِ أيتها المدينة فينا تكبرين ولا نشيخ... نحن الأصل... أيها العالم...

نحن من بدأ معها الرحلة من الصفر... نعم... لم نتخلَّص من وجع العشيرة، حملنا في حقائبنا القبيلة، لكننا كنا هنا قبل قُطَّاع الطرق ولصوص الأحلام، وتجار الأوهام.... نحن الورثة لا هؤلاء العابرون باسم بؤسنَا نحو جناتها الخفية.

تغيرت خرائط الدار البيضاء، لكنها ما زالت جزءًا منا... وما زلنا ملح الضباب، وحلم الأسوار والأبراج فيها...

نحن الأصل أيها العالم.... نحن الفقراء... نحن أولياء الحلم والعبور نحو كل فجر محتمل.

لو سمعني زميلي جلال، لنفى الأصل، وجعل أصل الأشياء أسطورةً، أفهمه... لأنه يعيش خارج النبع، لم يحلم يومًا بنجمةٍ في السماء سمَّاها باسم حبيبته وامتلكها، لم يحلم بشجرة غرسها وسكنَتْه، لم يحلم بموجةٍ عمَّدَتْه فصارت عيدَ ميلاد عنفوانه... لا يريد الحديث عن الأصل، لأنه غنيٌّ العهدِ الجديد، القادم من زمن القهر والفقر.

يُخيفُه سؤالُ «الأصل»... ولا يتحمَّس لسؤال «من أين لك هذا...»؟ لم يرث غير علل أبيه الذي مات على الطريق كما يحكي باحتشام واقتضاب دون الخوض في التفاصيل.... تفاصيل حياته تحرجه دوما، لم يرث غير كوخ على أرض في ملكيةِ وجيهٍ من فاس، وبقرة وأم عجوز مريضة، قلما يتحدث عنها، وكلما سألته أمي عنها، تغيرت معالم وجهه، واضطرب...

رؤية جلال للوجود تلغي الحفريات العميقة، عداد زمنه يصنع الفجوات، فيريح راهِنَه ويمنحه هدنةً مع أصله الذي لا يفخر به، الأصل عنده أسطورة، وحين يُحرجه سؤال عابر في حانة «ma chaumière كوخي» يردد وهو يلاعب السيجار الكوبي: «نحن أبناء اليوم.... سلني عما لي، وليس عما كان

بين يدَيْ غيري وصار لي... لا ذنب لي إن ركبتُ القطار قبلكم وانتظرتم أنتم أيها الأغبياء قطارًا لن يأتي أبدًا.... الوطن في حاجة للثروة لا الثورة.... وهل لنا ما نقتسم... أيها الحمقى...؟».

أكثر السكارى يرفعون له الأنخاب، قد لا يفهمون، ومن يفهمه ويعرفه يجامله وقد يلعنه البعض في نفسه. الحقيقة... لكن ساقية المشرب دائمًا مأخوذة به، كساحرٍ يُخرِج من قبعته الأرانب والحمائم... وحدي أهزُّ له رأسي، حين ينظر إليَّ... لمَ هو في حاجة إلى مباركتي... إلى صمتي... نصرُهُ ناقص دومًا إن لم أرفع له كأسي. أصدقه ولا أصدقه... أمنحه ما يريد، ويمنحني الرجاء والعزاء... ربما أنا أكثر نفاقًا منه... هو ليس منافقا... لا... لا... هو رجل سريع التأقلم... ربما هو يعلم أنني أصمت لأني لم أخض قبلُ معركةً وانتصرتُ... خسرتُ كل المعارك حتى مع نفسي... لكنه كأمي... هو ينتشي بالصمت ورفعِ الأنخاب، وهي تسعد بكلماتٍ مسكوكةٍ تليق لكل مواساة...

صحَتْ أمي من غيبوبتها: «خذني إلى الهضبة الحمراء... الدار البيضاء تبدلت... أصبحت باردة... وجيراني نزحوا... صرتُ وحيدة... خذني يا بنيَّ بعيدًا عن هذه المدينة الجاحدة... خذني... خذني...».

غلَبَها «فُواق» مرير من شهقات شديدة ملحَّة قصيرة متكرِّرة مؤلمة تهزها هزًّا من معدتها، تجاهلتُ كلامها منشغلًا بالنظر من النافذة، فحدَّقت في بعينين متعبتين وأردفَتْ وهي

تتنفس بحشرجة ويصدر عن صدرها صفير: «يا بني... خذني إلى بلدتي... خذني قبل أن أُسلِم الروح هنا بين الأغراب.»

«فُوَاقُ» أمي يذكرني بعذاب جلال «فعلًا جلال سكنني» وهو في قمة الثمالة، فقط تلك التشنجات في معدته تنغِّص عليه نشوتَه، ربما يتذكَّر انفجار معدة أبيه على الطريق، قلتُ له يومًا: «أفكر في جمع أشعاري في ديوان». تجشَّأ... عصَرَه الفُواق وقال بنظرٍ زائغ وابتسامةٍ ساخرة: «ومَن يقرأ الشعرَ...؟ انتهى زمن الشعر... كفاك مهنة المحاماة..».

هل انتهى زمن الشعر...؟ يا جلال... الشعر هو الوجود... هو الحياة... سنظل نقول الشعر حتى تقوم القيامة... ستسقط السماء فوق رؤوسنا وبين شفتي الوجود قصيدةٌ تصفُ الانهيار الأخير... وحدَهم الشعراء قادرون على وصف النعيم والجحيم.

كالعادة... أواجه صنمي في عقلي فقط...

ما توقف في حانة «كوخي ma chaumière»، يقرأ مقاطع من أشعار درويش ومحمد بنيس وأدونيس، ويمجِّد آلهةَ الشعر، وحين أختفي من ظلاله في قمة الثمالة يصيح: «الشعر هو الوجود، هو الكينونة، الشعراء زلة السماء».

ذات يوم قال: «لِـمَ لا تنشر أشعارَك...»؟ قلتُ في خاطري: نسي الرجل لكنه لم ينسَ، ثم أردف: «سبق وقلتُ لكَ أن لا أحد يقرأ الشعر، لا يهم، انشر ديوانًا أو اثنين، وانتسِبْ لاتحاد كتاب المغرب، وأنت محامٍ، ستجيد لعبةَ الوصول إلى

الكنز، احصل على منصب مريح في المكتب المسير، وتمتع بالسفريات والرحلات».

صنمي كل شيء عنده مغنم أو مغرم...

جلال محامٍ بارعٌ، يشتري المعلومة والشهود والعهود والعيون والعقود، مختص في حوادث السير وتصفية الشركات المفلسة... يمثل الجميع حسب الغنيمة، أحيانًا يكون في صف العمال، وأحيانًا أخرى في صف أرباب العمل، لم يمضِ على عمله غير خمس سنوات، فسَبَّ الدار البيضاء، وضاق ذرعًا بالمنبوذين والفقراء، واستقر في فيلا في ضواحيها، بمسبح وكلب شرس وحارس وحديقة لا يشعر بوجودها...

أما أنا... فما زالت هنا... في «زقاق المخزن» بالمدينة القديمة، أُمنِّي النفس كل يوم بطبع ديوان شعري، وعلاقة جنسية ناجحة بلا خوف... للأسف أخاف من جسدي أن يخذلني كما خذلني أكثرَ من مرة وأنا أرتقي صهوةَ فرس مشاعة.

نعم... فشلت في أول تجربة، انكسر لوائي، فصرتُ أخاف أن أكبو على سفح هضبة الشهوة... قد أجرب مرة ثانية... في مدينة بعيدة، وماخور لا يعرفني فيه أحد، قد ينكسر لوائي لكن على أرض لا تعرفني... وعيون لا تفضح هزيمتي... هل هي هزيمة يا جلال...؟ هي الحكاية الوحيدة التي لم أروها له، احتفظتُ بسري فقط لكأسي وخلوتي...

كيف صرنا أغرابًا يا أمي...؟

4 ◀

عاشت أمي سنوات طويلة هنا بالمدينة القديمة بالدار البيضاء، تحب رائحة الملوحة القادمة من البحر، ورائحة السمك الطري المسافرة من مراكب الصيد الجاثمة على رصيف المرسى، أمي كانت تحصي النوارس التي تحط على الشرفات، وتتبع ذهابها وإيابها من أبراج سور المدينة القديمة إلى البواخر والمراكب والقوارب حين ترسو محملة بالسمك.

ألم تردد دومًا: «لن أفارق جوار ضريحه (سيدي بليوط) حتى أموت قُربَ القبة»؟

لا شيء ثابت يا أمي، أتذكرين يوم أجهضت رحلتي للخارج...؟ لولاك لكنت الآن أرتع في أرض تتنفس الحرية هواءً، لكن... لأيام وأيام ظللتِ حزينة... حين علمتِ برغبتي في الهجرة... صامتة... معاتبة بقسوة النظرات، حتى لان قلبي وضعفت عزيمتي... فأجهضت الرغبة والهمة... أذكر ردةَ فعل

زميلي جلال وأنا أخبره بقراري الهجرة إلى كندا حين قال منتشيًا كعادته:

«المنفَى... منفَى... لا يكون وطنًا أبدًا، ولا حتى دار هجرة، مهما ادعينا وتظاهرنا، مهما عصرنا لكناتنا وروضنا ألسنتنا، وكَيَّفْنَا تجلياتنا اليومية، الاندماج أسطورة يا صاحبي، كل شيء فينا مختلف، أقصى ما يمكن فعله هو التعايش أو التظاهر أننا صرنا من أرض لا تُشعِرنا بالفرح، سنرى غربتَنا دائمًا في الوجوه والنظرات والأعراس والمحافل والاحتفالات والجنائز والمآتم والمقابر، ونحن في أحضان النساء سنتساءل دومًا: هل هكذا يكون العشق؟ كل قبلة منا لن تكون إلا تقليدًا لقبلاتهم، سنقول هكذا يُقبِّلون... سنغضب ونحتفظ في دواخلنا بظلال الغضب، لأنه علينا أن نغضب كما يغضبون لا كما يجب أن نغضب لغةً واضطرابًا... ونحن نواسي أو نتقاسم فرحة الآخرين، سنعود إلى غربتنا داخل شققنا ونتساءل: هل كنا موفَّقين...؟ سنشعر بالاختلاف وبالجرح في أبسط مطعم... كلما نطقنا أسماءنا».

جلال مثقف واسع الاطلاع، لا يغلبه أحد قرأ كثيرًا... لكن ثقافته إبرة عقربٍ تلسع خصمَه، فتصيبه بالحمى والهذيان، جلال عِربيد حكيم، حكمته لا تتجاوز عقله، يحزمها في حقائب قبل أن يلج داره، يتركها في الحانة أو في الحزب، قبل أن يدق باب بيته وتفتح له الزوجة المطيعة، التي قلما نراها، منذ تزوَّجها وأتى بها من بادية الأرض العالية.

قال جلال بعدما تزوج ذات يوم ولم نعلم أدنى شيء عن تفاصيل زواجه، فقط تخلَّى عن رفيقة عمره وأعلن زواجه ذات مساء مرددا بنشوة: «بنات الريف أكثر عفةً وطاعةً وقناعةً»...

ذاك المساء بكت الساقية في صمت... ليس لأنها حبا فحسب، بل لأن صمنها سقط... لم تعد ترى نفسها من خلال كلمات جلال... جلال لم يعد هو نفسه... وهي أدركت أن لا عفة لها... ممكن أن تكون قنوعة مطيعة، لكن العفة لا ترمم... العفة كعود كبريت يشتعل مرة واحدة... أما الصوت الذي في داخلي فيردد» العفة وهم... العفة قد تكون فيما بقي من رماد عود الكبريت المحترق...»

وقلت: «ما أدراك؟ ربما أحبَّت كأي فتاة، وحلمت واحتلمت، وكانت لها مغامراتها الخفية» لم يردَّ عليَّ، لأن هذا الكلام قُلتُه فقط في خاطري...

متى أحدث جلالا بصوت مسموع...؟

جلال هو نفسه من يرفع الأنخاب في الحانات للحرية والعدالة الاجتماعية، ويكون في الصفوف الأولى في كل مسيرة من أجل مزيدٍ من الحريات، كلما ازدادت جرعة الحرية في البلد، ضاقت في بيته، كلما أشرقت شمس جديدة على البلد، أضاف الستائر لكي تظل الشمس خارج بيته... لا أعرف لحد الآن وظيفة الحارس الشيخ المريض الذي يحرس «فيلاته»... هو حتمًا لا يريد حارسًا، بل يريد انتماءً للعالم الجديد بتفاصيله المملة...

ماذا أفعلُ...؟ هو زميلي... أفهمه وأشفق عليه من فصامه الذي يأكله من الداخل... كلانا مريض... كلانا يأكلنا الفصام من الداخل، جلال قادر على ترويضه، وأنا لم أتجاوز بعدُ صورَ الماضي في دار أمي...

كلانا تعيسان... يا صاحبي...

أمي تعرف جلالا... رأيها فيه غريب ومبهم... تقول عنه بتوجُّس: «هذا الشاب ليس كما يبدو، إنه يستر خوفَه بالثرثرة، لا يجرؤ على النظر في عيني، هو طيب على كل حال، لكن مَن يدري، ربما يُخفي أكثر مما يُبدي...».

جلال يعرف تاريخ أمي، جلال تقدُّمي في الحياة العامة محافظ في حياته الخاصة، يفتي في حياة الآخرين ما لا يفتي لنفسه... حين يسكر يقول: «أمك يا إبراهيم... مناضلة...»

هو يراها مناضلةً، وأنا أراها سارقة لبراءة طفولتي... وأتمنى لو كان لي خيار اجتثاث الأصل... هنا ألتقي مع جلال حول أطروحته عن الأصل... الأصل أسطورة... كم تريحني هذه العبارة... كلما غلبني العار من ماضٍ يطاردني في العيون والنظرات والهمسات.

قد لا أغفر لها... قد لا أمنحها سلامَ العبور نحو العالم الآخر... في قلبي شيء منها... لكني لا أستطيع أن أكرهها... ها يستطيع الإنسان أن يكره أمه التي ولدته...؟

جلال بالنسبة لأمي لا يُعرَف له غورٌ، ونيَّته «غابرة» عميقة...

لكنها تردف دائمًا هو: «ولد الناس»، ربما لأنه يُقبِّل يدها، ربما لأنه يهديها من حين لآخر ثوبًا تخيطه جلبابًا للعيد... ربما لأنه مَن أخذها بالسيارة إلى المطار وهي رحلتها لتحج، واستقبلها وهي عائدة، وزين السيارة بالأشرطة اللامعة، وأطلق العنان لبوق السيارة حتى توَّجَها «حاجَّةً» وهي تلِجُ الدربَ.

قالت لي أمي يومًا: «كن مثل جلال، يأنس بالنساء، وتأنس به النساء...».

أفهم ماذا تقصد أمي، هي المرأة الخبيرة بالشهوات لا تعرف كيف أدبر نزواتي، ولا كيف أصرف شهوتي، هي تعلم أن خطبا ما في يمنع عويل أدغالي، هل لا تعلم أن الميكانيكي «حوفار» لم يغادر أبدًا جلدي، وأن رائحتَه العفنة طرية ما زالت تسكن خيالي ومخاوفي؟

هل لا تعلم بعلاقتي الخائبة بـ «سناء»...؟

سناء... كائن جميل لا يُحرجني، التقيتها في عالم الفيسبوك، ونسجت بيننا علاقة افتراضية، هي شاعرة كما اشهرَتْ على صفحتها، لم أجد فيها الشعرَ بعدُ، وإن طبعت ديوانًا، وقدَّمه ناقد يزن الكلام بعددِ العوازل الطبية... هل ضاجعَها...؟ لا أعلم... علَيَّ ألا أجد الجواب لهذا السؤال، صورتُها لم تتغير منذ خمس سنوات، بل مؤخرًا غيَّرتها بأخرى أكثر عنفوانًا وشبابًا... واستمرت علاقتنا الدافئة على الزجاج البارد فحسب، طلبت رأيي في شِعرها، ترددتُ... تلكأتُ... وكتبتُ رأيي، ويا ليتني

التزمتُ الصمت... بعد أيام، أرسلت لي رسالةً على الخاص، قالت: «أنت سِكِّير لا تملك الوقتَ والعقلَ لسبر غور قصائدي» وحذفتني من لائحتها...

أرسلت لها رسالةً «كلانا نسكر من كأس الوجع، حتى لا نموت من الضجر، كلانا نهرب من الملل والخوف والاكتئاب، بعلاقاتٍ من «خوارزميات»، كلانا نُرمِّم زمنًا يهرب منَّا خوفًا من الشيخوخة بعلاقاتٍ من سراب، كلانا عابرٌ هنا... نبحث عن ساقٍ يسقينا كأس رجاءٍ، والساقي حزين والكأس فراغ... لَمْ تكوني شاعرةً فحسب، بل كنتِ تافهة... وكنتِ لعبةً سئمتُ منها...».

لم تردَّ عليَّ أبدًا، لأنني لم أضغط أبدًا على زر الإرسال...

جلال يجرني أحيانًا إلى أسرةٍ عابرة، أتحجَّج بالعياء وأختفي، أمي يعجبها في زميلي فُحولَتُه، وهي تخلط بين الرجولة والفحولة... هذا يتجاوز حكمتَها التي جمعتها في صندوق لعناتها وخبرتها التي استقرأتها من آلاف وجوه الرجال والنساء... لها كشوفات دقيقة عن كل الضعف البشري، ومن أدق تفاصيل ضعفهم تعلمت كيف تروِّض أشدَّهم عتوًّا، وتبتزُّهم إن تطلَّب الأمر ذلك.

في دارنا كان الرجال يتحولون مجرد كتلةٍ من الشَّبَق تنزع عن صاحبها أقنعته وتُسقِط صنمه، أكثرهم يحتفلون بأسرارهم الغريبة، ثم يعودون في الصباح إلى حياتهم العادية المزيفة،

منهم الوَرِع والخطيب، ومنهم الإمام والعربيد، ومنهم المناضل الشديد، الكل يريد مُلكًا مؤقتًا، يعتلي فيه عرشًا زائلًا، يأمر ويختصم إليه الآخرون، وترقص أمامه المومسات، وتُرفع له الأنخاب، ويُهتَف باسمه، وتغني له المغنيات وهنَّ يُثِرنَ فحولتَه وسخاءَه برفعه إلى مرتبة سلطان الليلة، أمي يدها طويلة عند البوليس، أمي كانت مخبرة مقابلَ غضِّ البصر عن نشاطها، أمي كانت تنصب الفخاخ للمعارضين، يبيتون ليلةً في الدار، تمنحهم السلطنةَ والحكم والأمر والنهي، وفي الغد يصمتون إلى الأبد، وقد ذاقوا طعم السلطة والحكم في الدار الملتهبة...

في ليلة من الليالي، أتى رجال الفجر، ومعهم شاب مخدَّر، رموا به في دارنا، ونام حتى الصبح وفي سريره فتًى قاصر...

أعرفه الآن... كان مناضلًا مزعجًا... صمت وسكن ظله... صار شبحًا رماديًّا من الماضي، غارقًا في الإدمان... يكلم نفسه أحيانًا في الطرقات...

رفاقه قالوا: «باعنا... وباع القضية..».

زوجته قالت: «سحرت له عاهرة..».

خليلته قالت: «سمَّمتْه زوجته العاهرة..».

جيرانه قالوا: «أصابت الكافر لعنة السماء العادلة».

هل أغفر لها...؟ مَن له الحق في النطق بالصفح... أنا...؟ ذاك المناضل الذي جُنَّ...؟ أولئك الذين صمتوا إلى الأبد...؟ مَن...؟

لأمي ضعفُها وهوسُها... أمي تسكن الدنيا أعراسًا... لكن الدنيا تسكنها هوسًا... كانت كلما ضاقت بها الدنيا، أو ركبها الجزع والقلق من ثقل الخطايا، تخفف عنها الهم والكرب بزيارة القبة القرميدية الخضراء للولي الصالح «سيدي بليوط» المنتصبة بين العمران والبنيان... جلال يعد الضريح لعبة فرنسية... جلال يعد فرنسا ما زالت في العقول والحقول والأحزاب والنقابات والمصانع، ومشاتل القرارات... يقول: «ماما فرنسا... رحلت وتركت أبناءها... حين تصاب باريس بالزكام، يرشح أنف المغرب، وتعطس الأحزاب...» كل الأحزاب يا جلال...»؟ نعم... فرنسا... لها ما يكفي من الخبازين السياسيين، لتعجن للمغرب، فنحن بلدٌ من عجين..».

جلال لم يأخذه رجال الفجر إلى دارنا، ولم يدسُّوا العارَ في سريره، لكنه صمت منذ اشترى سيارتَه الأولى، والأرضَ التي بنى فوقها الفيلا... منذ صار له كلبٌ شرسٌ... وحارس بوابة، وحديقة بمرشات مترنحة، غدا معارضا ناعما، فمن نشأ لسانه ومنطقه على المعارضة صعب أن يكيف عقله مع الخنوع التام، لكن لابد أن يفضحه لسانه، ولا بد له من قضية كي يظل حيا... غدا يفسر القهر كونيا، يعده آت من وراء البحار، ي يتحدث عن العدل بين الشمال والجنوب، يتحمس لكل نقاش حول البيئة، يلعن الغرب الذي استنزفنا وحولنا الى مطارح للنفايات... فسر كل هزة بمؤامرة، ويتحدث عن قوى للشر تعيد صياغة الخرائط باصطناع الفوضى والحروب والطائفية

والنزاعات العرقية، غدا خطابه كونيا لا محليا، يمجد الاستقرار و يحذر من مصير دول أكلت شعوبها طعم الاستعمار الجديد بمسميات مغرية... الحرية... الثورة... فظل معارضا متحمسا لكن بأقل تكلفة.

أمي تلحُّ، تريد الهروب بروحها إلى الهضبة الحمراء، والموت بعيدًا عن الدار البيضاء... مدينتي صارت غريبةً... ظهرت مدينةً جديدةً صاخبةً بلا هوية، هجينة الهويات والرغبات، حُبلى بالمفارقات والمتناقضاتِ، على خط التماس مع القبة والحائط، وظلت ردهاتُ الأضرحة فضاءاتٍ للمشرَّدين وللمرضى والفقراء والمتسولين والعجزة.

تقول أمي صرنا غرباء فيها... كيف صرنا غرباء هنا يا أمي...؟

لا أفهم هذه الغريزة الغريبة عند أكثر البشر، الرغبة في الدفن بمسقط الرأس، كأن الموت يغدو هينًا بجوار موتى نعرفهم أو عشنا بينهم، كأن القبر في الغربة أكثر غربة ووحشة...

أمي... بلدتك «الهضبة الحمراء» كما قلتِ دائمًا غارقة في البؤس والعفونة... غارقة في الظلام والزيف والأوهام... تقولين إنهم حمقَى، يختصمون من أجل بقعة أرض، ويبيعون أضعافها عند التقاضي... فكيف تعودين إلى أسفل السافلين...؟

في بلدة أمي مسقط رأسها... لا شيء مقدس، مَن يغادرها لا يعود، ومن يُدفن بها يتحول جيفةً ثم يُنسى مع الزمن... وقد

تتحول المقبرة إلى أرض يحرثها جبار جديد من زمن يُصْنَعُ أغنياؤه كما تُصنع نخبه السياسية، فيجمع العظام والرفات في حفرة عميقة ويطمرها إلى الأبد... في بلدة أمي... لا ذكرى للأموات... الشواهد من حجارة ثقيلة، قد تُسرَق ليلًا لتصير لِبنَة في جدار بيت جديد أو سور متهالك... في بلدة أمي... كل سنة تتبدد الحدود بين المقابر وأراضي الجيران، يقتطعون منها ليلًا ويحرثون، لا أحد يعرف مصير العظام غير العطار والسحرة والعرافين والكهنة... هذا ما تقوله أمي وتزيد: «لا يرحمون الناسَ موتى ولا أحياء».

فكيف تقررين العودة لتُدفني في مقبرة قصية، قد يبعثرُ قبرُك... لا... وتسافر عظامُكِ في صندوق ساحرٍ أفَّاق...؟ لا أفهمك يا أمي...

التقلصات والشهقات المريرة ما انفكَّت تهز أمي هزًّا، وتفوح من ثيابها رائحة البول، لا أعيف أمي، لكني عاجز عن غسلها والكشف عليها وهي عارية أنتظر بنتَ الخياط «رقية» على أحر من الجمر، رقية وحدَها لها الرخصة من أمي للكشف عليها عاريةً، وتغيير ملابسها، كلما حلَّت رقية بالدار تَهلَّل وجه أمي، وتنفستُ الصعداء، تغلق الباب، وتعمل على إفاضة الماء الدافئ على البدن السقيم، وتفركه فركًا بالصابون حتى تئن أمي وتطلب الرفق، ثم تعطرها بعطر قوي تأتي به من دار أبيها، عطر لا أحبه، يضعه علي الخياط أبوها، ويرشه كل لحظة.

كانت أمي تقول إن الخياط علوان الأقرع والد رقية يطمع حتى في «كلبةٍ جرباء»، وهي لا تستلطفه ولا تصدُّه كل الصدِّ، وإن كانت تنظر إليه تلك النظرة التي تهزُّه من الداخل وتجعله صغيرًا صاغرًا قزمًا يتكوَّر في حضرتها، يخشاها بغرابةٍ هل ما زال يذكر زمنَها زمن الشفرات والشظايا والسكاكين؟ كم ركبني العجبُ والذهول من خوف هذا الخياط الطويل القوي البنية، العريض المنكبين من أمي؟ رأيته مرارًا وتكرارًا بخنوعٍ وخضوعٍ وقلقٍ يُقبِّل كتفها منحنيًا، وحين تدخل الدار وترمي الإزارَ عن جسدها تردِّد بحسرة وهي تلوي شفتيها وتهزُّ رأسها: «صادفت الكلب اليوم... علي الخياط الأقرع... من يرَ فعلَه معي يَقُلْ سيد الرجال، وهو عبد لما بين فخذيه، يحسب كل امرأةٍ عاهرة... لا يستحق أن تكون له ابنة مثل رقية، وزوجته الضاوية الحمقاء تلائمه، وتغطي عن أفعاله، وحين تفوح رائحة فُحش زوجها، تقول: مسحور زوجي... مسحور... ممم... هههه... تزور العطارين والساحرات علَّها تجد دواءً لداءٍ لا يوجد إلا في عقلها، تكاد تخنقننا بأبخرتها... وعلوان الأقرع حر طليق يرتع في حضن البغايا... كنت بغيًّا ووسيطة... أعرف هذا النوع من الرجال... هرم الرجل وما زال يرش نفسه بالعطر ذاتِه جيئةً وذهابًا».

ألم تكن أمي بغيًّا محترفة، ثم وسيطة مشهورة...؟ ألم تكن هي نفسها تتردد على السحرة وقارئات الأوراق وفقهاء الظلام، وترش العتبة وزوايا الدار رشًّا عند الفجر وعند المغيب طردًا

للحسد والنحس، وتملأ الأجواء من حين لآخر بأبخرة وروائح نتنة...؟ ما الذي يؤلمها في أفعال علوان الأقرع؟ هل نسيَتْ أن دارنا استقبلَتْه في زمن مضى، وكان سخيًّا معي ومعها ومع بنات الهوى؟ ألم يكن يصطاد طرائده، ويأتي بها لتنضج على مهل في دارنا؟ تصبح على نار الكأس والتهتك، حتى تغدو قابلة للأكل في إحدى الغرف العفنة، وما رفضت يومًا ولا تبرَّمَتْ ولا نعتته بالأقرع... ألم يكن الكل في الدار... مومسات وبنات هوى وأمي نفسها، يدعونه «سي علوان» بتبسُّمٍ وترحاب؟ كيف صار اليومَ أقرع وتعافه الكلاب؟

هل يُذَكِّرُها بماضيها أم في وجهه الذي فقدَ بريق الشباب وعزَّ الكهولة ترى شيخوختَها واندثار زمنها؟ هو لا يراودها عن نفسها أبدًا، ولا يغازلها... قد لا تغفر له أنه أول من أعلن كساد جسدها، قالت يومًا بألم وهي بين البنات: «الأقرع... قال لي... حينَ رآني أتزيَّن: لا يُصلِح العطَّار ما أفسده الدهر يا ربيعة... كأني شِختُ... عودٌ في عينه، «فليلحس الكلب لسانه».

كنت صبيًّا، ما تبدَّدَتْ ولا تلاشت مشاهد جلوسهن مشمِّرات فساتينهن عن السيقان، وهن يُدَخِّنَّ أو يرحضن الملابس في الفناء، ما زالت ضحكات المومسات المتهتكات عالقةً في ذهني وهنَّ يُردِّدنَ: «ما زلتِ «الشهبة» التي تَفتن برمشٍ من عينيها أشدَّ الرجال». والحقيقة أن رموش أمي خفَّت حتى تساقطت، وشعرها المسبل الأشقر، خفَّ وظهر صلعٌ هنا وهناك، ما احتملته لأيام حزينة، حتى اهتدت لزينة المنديل

والشعر المستعار، فقد زحف الشيبُ بسرعة، وإني رأيت أمي تكدُّ وتتعب في إخفاء معالم شيخوخةٍ تسللت إليها باكرًا وهي غارقة في عالم المجون، من السهر والخمر والتدخين، بعدها بسنةٍ غيَّرت حرفتها، ولم تعد تقاسم السرير إلا خليلًا قديمًا ما زال يطلبها.

أأغفر لها...؟ ليس هناك أكثر عذابًا وألمًا من العار...».

أأصفح عنها وأمضي وحجتي في ذلك قولةُ جلالٍ: « الأصل أسطورة... نحن من نصنع البدايات... البدايات لا تصنعنا بل تقيدنا... تحرر منها...».

لا أعرف كيف أحبكِ ولا كيف أكرهكِ... إنني في المنطقة الوسطى لحدِّ الساعة... وها أنا إذًا أستعجل موتكِ... رحيلكِ...

هل أنا خبيث شرير...؟

فكرتُ يومًا أن أفتضَّ بكارة رقية بنت علوان الأقرع، أن أجعلها حُبلى، أن أفضح أباها كما كان جزءًا من فجيعتي وفضيحتي... فكرتُ بكل بنات الرجال الذين أخذوا منَّا المتعةَ واللذةَ وتركوا لنا العار والألم... ثم تراجعتُ... بطيبوبةٍ لا أعرف أصلها، لا يمكن أن أرثها عن أمي... أمي لا تورِّث غير الحقد والظلام والعار... لو كانت هي لفعلت... أنا في شيء ما يحدُّ من شرِّي وحقدي، ويطوِّق غضبي بالرأفة والشفقة... لا مجال للعقل في ذلك... أبدًا... من أين أتيتُ بهذا الخير الكامن في...؟

لا تحب أمي أن يقبل علوان الأقرع كتفَها، تقول بغضب:

«وهل أنا في سنِّ أمه، ربما أنا أصغر منه...» ثم تعود وتعود وهي تهز حاجبَها الأيمن: «لا... الاحترام احترام... دعه يفعل ذلك... فالكبير كبير بالشأن لا بالسن».

وأي شأن لكِ يا أمي... لا تاريخَ يمجَّد، ولا أيامَ غرَّاء تُذكَر فتُنعش العزةَ والكبرياءَ، ولا أصلَ نعرفه يعوِّضنا عفنَ الماضي...؟ ليس لنا ما نتفاخر به بين الناس غير جبابرة حطمتِ جبروتهم بضربة سكين، أو شوَّهتِ وجوههم بشفرات الحلاقة، أو أطلقتِ يد بعض الرجال فيهم، فغادروا الحي صاغرين... فأمي كانت تقول في وجه كل جبار: «ديتك في جيبي» وتأمر بعض الرجال الأشداء بتربية الجبابرة والمتنطعين، ثم تخرجهم من السجن بلا متابعة.

5 ◀

عطر علوان الأقرع قوي يغلب على أية رائحة، وهو العطر نفسه الذي يفوح من جسد أمي الآن، يشعرني بالغثيان، بالرغبة في القيء، يتسلل إلى طفولتي، فيفتح غرفة باهتة الضوء، أرى جسدين عاريين، أسمع أنات وشهقات، أرى رجلًا ينتفض بذعر، وعيناه في عيني وأنا أبتسم ببراءةٍ للجسد العاري، هازئًا من العري، تنهض أمي مزمجرةً، تضع عليها إزارًا، تجرني نهرًا إلى الغرفة الأخرى وهي تترنح، لم تنبس بكلمة، فقط أغلقَتِ الباب عليَّ، وعادت إلى الغاب ملبية نداء الذئاب.

هل أغفر لها؟ هل أنا قادر على منحها الغفران والسلام؟ من منا في حاجة إلى السلام...؟

جاءت رقية بنت علوان الأقرع... كثَّرَ لها خيرَها... هي مَن تحيط أمي بالرعاية... رشَّت جسد أمي بسخاءٍ ودون حساب بالعطر اللعين، فلم تبالِ به ولم ترفضه وهي تعرفه، بل أنعشها،

وبرق وميض غريب في عينيها المتعبتَيْن، هل أنعشَ فيها زمنها الماضي وهي لا تدري...؟ هل سافر بها هذا العطر القوي إلى زمن القوة والفتوة والجمال والعنفوان والمرح والنعم؟ هل أسكرها كما تسكرنا الذكريات الجميلة؟

هل تسكرنا الذكريات...؟ زميلي جلال حين ينتشي يردد: «الكأس تستدعي الذكريات الجميلة التي تسكرنا». وحين يسكر يلعن الطريق التي مات فيها أبوه من انفجارٍ بالمعدة.

سنموت جميعًا على كل حال... فقط هي مسألة وقت... مات الأصحاء الضعفاء، وها هم المرضى والميؤوس من شفائهم، منذ زمن يخيطون أيامهم بالألم، لكنهم عمَّروا حتى حيَّروا القدر... القدر لا يحتار... القدر لا يُغيِّره إلا قدر... أقصد أن المرض لا يقتل... والموت ليس له عداد ولا أعراض... وهل الموت يُتَوَقع كعاصفة مقبلة مدمِّرة...؟ الموت هكذا يطوف كلَّ الخيام... يقطف الرضيع... والجنين... والشاب القوي، ويميل عن السقيم... وحين تشتد شهيته، يأتي الطاعون وإيبولا والسيدا والحروب المدمرة...

الموت... أغنية ترغم المسافر على الغناء ثم الخفاء... ستموت أمي... وسأدفن خوفي مع حنوطها... ربما... لستُ متيقنًا...

عطر علوان الأقرع هو نفسه الذي كان يفوح في الدار في زمنٍ مضى كلما حل علوان الأقرع الخياط رفقة مومس، كم

أكره هذا العطر؟ ينكأ الجراح، وينعش ذاكرة الخزي والهوان، أتحمُّله لأنه يُخفي الروائح العفنة، ورقية تأتي به في قارورة كبيرة بفرحٍ وحماسٍ، أمي تتغوط وتتبول في الحفاضات، وقد يتسرب البول إلى الفراش، وأنا عاجز أن أقربَها، آهٍ... لو كانت لي أخت... البنات أكثر عنايةً بالأمهات، لا يجدن حرجًا في تنظيف المناطق الحميمية للأمهات والآباء.

رقية بنت علوان الخياط الذي ينادونه بالأقرع فلا يجد غضاضةً في ذلك ربما تستعرض آخر أسلحتها، فهي لا تملك جمالًا تنافس به البنات على زوج محتمل، ولكنها تملك الصبر وخدمة الأمهات المرضى والمتعبات، من تهتم بالأم تكبُر في عين الرجال، قد أختارها زوجة، أو يختارها غيري، لا لن أختارها أبدًا... سيظل عطر أبيها جزءًا من سريرنا...

وهل أنا صالح للزواج وكلي أعطاب، وغزواتي فاشلة بلا لواء يرفرف ساعةَ يحمى الوطيس؟

صارت لرقية سمعة راسخة في الصبر والوفاء والتفاني في خدمة العجزة والمرضى... ربما هكذا تفكر، ربما هي غير ذلك، وأنا من يُؤَوِّل الأمور، ربما هي رقية الطيبة فقط، ويريحها ما تقوم به، وأنا المخبول الماكر تعودت على تصنيف الناس كمخبر في مكان عام.

لا أقسو على رقية، حين أبوح أنها لا تشعل أدغالي، وجسمها عاجز على أن يصير عودَ كبريت لفتيل النزوة، فهي

غير مثيرة، جسد كالعمود بلا خصر واضح، ضعيفة العجيزة، ضامرة الصدر، أفتش كثيرًا عن أنوثتها فلا أجد غير صبر المرأة وابتسامتها، ووجه لا يضجر ولا يتبرم، سيكون محظوظًا مَن يتزوجها، إلا أنا... سيُعوِّض مَن يتزوجها ما ينقصه في أسِرَّة البغاء والخليلات، لن تسأله... لن تتبرم... لن تحتجَّ... ستلد له الأبناء، قد يميل قلبه لغيرها، فيبرد سريرها، فتلتمس له الأعذار في السحر والعين، قد تقول في خاطرها: «هو لي حين يدخل البيت، خارجَ البيت لا شأن لي بحياته...».

عادت رقية قبل الغروب على ديدنها، ومع عودتها تعود الطمأنينة، وفرح عاتم يظلل وجه أمي، نظَّفتها فقط بفوطة مبللة حتى أخمص قدميها، أفرغت المبولة، تخلصت من الحفاضات ومن الخِرَق والمناديل العفنة، غيَّرت ثم سوَّتِ الفراش الجديد، رحضت الأغطية والملابس بالصابون، ونشرت الكل على حبلٍ في فناء الدار. طبخت لنا طعامًا، لم أمد يدي إلى الصحن، سامحني الله... عافت نفسي ما تعِدُّه يدها... تقوم رقية بما تقوم به بصمت غير ماجنة الخطو ولا متهتكة المشي، هل تعرف حدود إغرائها، أم أنا عفِنُ التفكير؟ تغسل الأواني والصحون وتغادر البيت وهي مطرقة الجبين، أحيانًا لا نتبادل غير السلام... هذه المرة قالت قبل أن تختفي في الزقاق المجاور:

اسمع... لو وقع طارئ أنا في البيت... لا عيبَ... نَادِ عليَّ ولو ليلًا...

حاضر رقية... سلمي على أبيك وأمك الضاوية.

أمي تحب رقية، لكن هل رقية بنت الخياط تحب أمي؟ لا أعرف، لكن الكل يعرف تاريخ أمي... الناس هنا متسامحون... أو متعايشون... أم خائفون...؟ لا أعرف... فأمي كانت جبارة وسليطة اللسان ولها حظوة عند الشرطة.

تغادر رقية بنت الخياط الدار... ليتها لم تغادر... وجودها سِحريٌّ يُبدِّد في الخوف والغربة... لم تكن جميلةً، لكنها كانت دافئةً، تنشر السكينة أينما تحلُّ... وحين تلج الدار تنفرج أسارير وجه أمي حين تراها، يتهامسان من حين لآخر، تضحك أمي أحيانًا رغم الألم، وتضحك رقية بنت الخياط وهي تضع يدها على فمها...

معالم الأنوثة أكبر بكثير من هندسةٍ بأبعادٍ لجسد امرأة... الأنوثة وجودٌ مغايِر للذكورة... الأنوثة شعورٌ لا حضور مادي عابر... يشيخ الجسد ولا تشيخ الأنوثة...

يخيفني الليل في الدار منذ مرضَتْ أمي، أشعر أن الموت في زاويةٍ ما يراقبها متربصًا باللحظة المناسبة... لا... لا... الموت لا يتربص... الموت يأتي في اللحظة المحددة له، يؤدي وظيفته ويرحل... لا حيلةَ له... هو مأمور... ولا عداوةَ له ما أحد، فقط تلك وظيفته.

يزحف الليل كئيبًا فيزحف «الفُوَاقُ» القوي إلى معدة أمي من جديد، تهتز لمدة طويلة، فيهتز روعي ألـمًا وينفطر

قلبي وتتشظَّى روحي، الأطباء يدبرون دورات الألم، يؤجلون الموت... من أين لهم هذه القدرة في مشاهدة الموت وتجلياته المتعددة...؟ فالموت سريعًا كما في السينما، إنه احتضار... اعتصار... اختناق... بحث مُضنٍ عن هواء من سَمٍّ إبرة... خير لي ألا أكون وحدي... أن أحملها إلى مسقط رأسها... الموت بين الناس يطاق... والجنائز الحافلة بالناس تخفف وزر اللحظة المؤلمة.

تلحُّ أمي في الطلب... «خذني عند خَالَيْك... لا أريد الموت هنا...».

ألحُّ أنا في السؤال تلو السؤال على نفسي مناجاةً في خاطري، عقلي مضطرب، وفكري مهزوز...

أمي تموت... هل ستموت أم ستختفي...؟

أخاف أن أدفن الجثة لا الضوضاء...

وتعيش في عقلي وجلدي...

يقول زميلي جلال وهو يرفع كأسه لنا إكرامًا: «الماضي لا يموت... فيه نهضة الشعوب، وفيه هوية الأمم، لكنه سجن كبير، إن حولناه صنمًا معبودًا...».

«أليس الماضي أصلا ونبعا... يا جلال... وأنت أكثر ما تكره الأصل...؟» لم يجبني جلال، لأني كعادتي خاطبته في خاطري وأنا أرفع له الأنخاب... «صنمي» جلال غير متناقض بل هو فقط يغير قوالب القول حسب الكرنفال...

لمَ أتطاول على أنوثة رقية...؟ ألستُ أؤمن بأن الأنوثة أكبر من صورة نمطية على مجلة عبثية؟

هل بموت أمي أجدد وأرمم لوائي المنكسر؟ ويرتفع بوق النصر فوق هضبة الغفوة؟

تلح أمي في الطلب وهي تزحر وتئن وتهن: «خذني... يا إبراهيم... خذني إلى أرضي بالهضبة الحمراء»

ما الذي أنعش فيها هذا الحنين إلى أرض كانت تصفها بالجاحدين أهلها، والمنافقين رجالها، والعاهرات المزيفات نساؤها؟

غادرتِ الهضبة الحمراء الغارقة في الوجوم يافعةً جميلةً، طريَّةً مثيرة، وستعودين إليها جسدًا بلا لحم ولا حياة، منطفئة ضوء العينين، ألستِ من ينادونها بـ «الشهبة»؟ ألستُ ولد» الشهبة» أي الشقراء؟

وماذا هناك يا أمي غير عيون غائرة، وبطون ضامرة، وضغائن دفينة، ومظاهر الموت في وجوه الأحياء؟ ماذا هناك غير الريح والشيح، والحقد وزيف المديح، والانتشاء بفضح المستور وكشف العيوب على مصطبات المساجد الفارغة الموحشة؟ ماذا هناك غير الخوف الجاثم في القلوب والتوجس القامع للعلاقات والصمت القاتل للرجاء والبؤس العازف على وتر الرتابة والفراغ؟ ألم ترددي على مسامعي دوما: «هم منافقون... كفرة...» القلب... حلافون على الباطل، إن رأيتَهم

يشتكون باكين فاعلم أنهم ظلمة، هم محتالون، يغشون في الكيل والوزن، ويزورون الشهادة، الباطل عندهم سهل مقابل وجبة أو عشرة دراهم، يسرقون الجار، ويطمع رجالهم في نساء بعضهم، ثم يدَّعُون الأنفة والعزة...»

كانت حين تنطق «الأنفة والعزة» تتنهد وأشعر بها منكسرةَ الجناح، ألم تهرب من أهلها مع عباس عازف الكمنجة، ثم تخلى عنها وغدت مومسًا مشهورة في آسفي ثم الدار البيضاء فيما بعد؟ القدماء من سكان مدينة وبحارة آسفي ما زالوا يذكرون «الشهبة» التي تربعت على عرش جمال المومسات لسنوات، ويتذكرون لياليها ورقصَها وغناءها وجمال بناتها.

أحيانًا حين أتلمَّس طريقًا وسطًا أقول في خاطري: «نعم أمي عاهرة تائبة... بل وسيطة دعارة قديمة... وماذا بعد...؟ لكن الحقيقة أنني كم تمنيت ألا تكون أمي... كم كرهتها بصمت حينما كان يحل الرجال والنساء ويرتفع الصخب وأنا طفل بدأت أكتشف ظلمة العالم وضعف البشر...».

تقرر أمي الحاجة ربيعة العودة للموت في بلدة هربت منها طرية، وستعود إليها ضعيفة... قد لا يتذكر أحد أن هذه المرأة «الشهبة» جميلة الجميلات... الشابة التي فتنت شباب ورجال الهضبة الحمراء قبل أن تهرب رفقة «الكوامنجي»..

يرتفع صوتها بمشقة من جديد بين زحير شديد وأنين أليم: «يا إبراهيم... أريد الموت في الهضبة الحمراء... أينك يا بني..»؟

أتظاهر بعدم سماعها، أنشغل عنها بسيجارة أغتالها بكل شراسة، وأتابع من النافذة المطلة على باحة أمام ضريح «بوسمارة» الحركة الدؤوبة لتاجر المخدرات المكنى بـ «الجن»... يحتلُّ مكانًا في زاوية مظلمة مفتوحًا على عدة أزقة، وكل البيوت أمامه تظل مفتوحة لمنحه فرصة الهرب والاختفاء، أليس «الجن» هو من يشتري الأكباش لليتامى والأرامل، ويساهم في الجنائز والمآتم، ويَعُول الأرامل، ويُعَوِّل عليه برلمانيو المنطقة لحشد الأصوات، وتَجْيِيش المنحرفين ضد خصومه؟ «الجن» وحده من يضمن لبعض العاطلين مصروفَهم اليومي... ها هو يجلس مطمئنًّا، لا عدوَّ له في الحي، بل هو أكثر الشخصيات شعبيةً وحبًّا عند الناس، يتقاطر عليه المدمنون، وكلبه الشرس رابض أمامه يهر من حين لآخر، ويهدئه هو بنظرة واحدة فقط. من حين لآخر ينتفض واقفًا ويختفي، تحل الشرطة وتعود بخُفَّيْ حنين، فوقَ السطوح وعلى النواصي ومداخلِ الأحياء وأهمِّ شرايين المدينة القديمة انتشرت عيونه وآذانه من الفتيان والعاطلين وحتى النساء ينذرون ويستنفرون.

يصلني صوتها الواهن المتعب بإلحاح: «يا ولدي خذني عند خَالَيْك... يا ابن الكلبة لمَ لا ترد عليَّ..»؟

ههه... حين تغضب أمي لا تجيد الشتيمة من قاموس توبتها... ربما الغضب وحشي، فطري، بدائي، يتمرد على «المسودات»..

أجلس على حافة السرير، أضم يدها بين يدي، أرى في عينيها خوفًا غريبًا، أتخاف أمي من لحظة العبور؟ كم أنا أحمق... من لا يخاف من هذه اللحظة المبهمة، من السفر إلى عالم مجهول الخرائط؟ لكن أمي مؤمنة... تابت منذ زمنٍ توبةً نصوحًا، وحجَّتْ واعتمرَتْ... وأحرقت ملفاتها القديمة، واعتزلت في غرفتها ترمم شروخ دنياها علَّها تتصالح والسماء...

تلحُّ... وتلحُّ... وهي تتقلب في الفراش طلبًا لراحةٍ عزَّتْ، وإراحة لجانبٍ غزَتْه قروحٌ كالضبر.

«حاضر يا أمي سنرحل غدًا..».

تتفرس في بنظرات متعبة، أستجلي الفزع في الجفون المتهدلة، والرموش الخفيفة، تنظر إليَّ مرارًا بطرف عين زائغة، كأن وجهي يخيفها... أتخاف مني أمي؟ أتمنى لو كانت رقية بنت الخياط في الدار، لتحمل عني قسطًا من وزر الوحدة والوحشة... وحدها رقية لها سحر الروح لا الجسد لتبدد الحزن وتخفف الخوف في الدار... محظوظ من سيتزوجها... لكن لست أنا...

6 ◀

قبل منتصف الليلة بساعة، جاءت تلك العجوز القصيرة القامة السمينة صاحبة ورفيقة درب أمي منذ زمن، تجرُّ إزارها العفن، حيَّتنِي على العتبة بإشارةٍ سريعةٍ من يدها، ولم تنظر إليَّ، لأنها تعلم جفائي، وهي معتادة على تجاهلي، بل عبوسي في وجهها، الذي أيضًا تتجاهله، ألِفَتْه ولم تعد تسأل أمي عن تبدل أحوالي ومشاعري، وقد نشأتُ في حضنها، ورعتني كما رعتني أمي وكل بنات ونساء الدار، أعرفها منذ نعومة أظافري، توقفتُ عن مناداتها خالتي منذ زمن، تشعر بي أكرهها، وتحسُّ بنظراتي تكاد تحرقها، فهي نفسها مومس قديمة، ونظراتها بعدما شاخت غدت مخيفةً وغدا وجهها متهدلا.

جلسَتْ على طرف السرير، صمتَتْ طويلًا، وهي تربت على صدر أمي وتذرف الدمع الساخن، شعرت بها صادقةً، فلم تكن تعصر عينيها، كان الدمع يغلبها، تدلك ساقي أمي من

حين لآخر وتمسح جبينها بمنديل مبلَّل، أحسُّ أنها تترصدني، تظاهرتُ بالخروج أمام عتبة الدار، همسَتْ في أذن أمي كلامًا ملتفتة يمنة ويسرة، فاضطربت أمي حتى كحت، وجحظت عيناها وهي تردد بتعب «اصمتي يا عاهرة...».

آه... ما نسيت أمي معجمها القديم، ما إن تغضب حتى تخرج كل لفظ بذيء، وكل شتيمة فاحشة...

لا تمتعض العجوز، ولا تصدمها الشتيمة الفاحشة، فقط تلوي شفتيها، وتربت على صدر أمي وهي تضحك، ثم تشرئب بعنقها من الباب ملتفتة يمنة ويسرة، وتقول بحسرة وأسى: «قلت في نفسي... لو يسمع منكِ إبراهيم خيرٌ من أن يسمع من غيرك، وسيعلم بلا شك...»، تعود لتلقي نظرة خاطفة على الفناء، أتوارى وراء الباب، فتردف بصوت خفيض وهي تربت على صدر أمي بحزن وأسى: «التوبة لم يكتمل خيطها بعدُ... قولي له الحقيقة قبل فوات الأوان... قولي له مَن هو...».

تجاهد أمي لتجلس مستندةً على يديها، والعجوز تشدها من خصرها، وتقول وهي تزحر وتهنُّ: «يا ساقطة... هل جئتِ لتعلميني التوبة... تبتُّ قبلَكِ... حججت واعتمرت، وتركتك أشهر محترفة للقِوادة بالمدينة القديمة... أنتِ لا تعلمين كل الحكاية، ما فعلتُه كان يجدر بي فعله... أنا المظلومة... اُصمتي...».

أرهفتُ السمع، وشدني الفضول بقلق لأتابع الحديث، أي

سر آخر في حياتنا يا أمي...؟ ماذا تريدين حملك معك إلى القبر غير كبريائي...؟».

تغلق أمي فم العجوز بيدها بخوفٍ واضطراب، وتردد متلعثمة: «اصمتي... اخرجي من داري... لا أريد أن أراكِ... أنت لا تعرفين الحقيقة كلَّ الحقيقة...».

كنسَتِ العجوز الفضاء بنظراتٍ سريعة وقالت وهي تلوي شفتيها: «بيتك جميل وواسع... بدونك يعلم الله مصيره...».

بيتنا عبارة عن دار قديمة «سفلية» من غرفتين ومطبخ ودورة للمياه، في درب قديمة متآكلة الحيطان كباقي دور المدينة القديمة التي تقبع وراء السور، ويفصلها عن رؤية البحر المرسى وطريق بحرية تؤدي إلى العاصمة الرباط. عادت العجوز وقالت بقلق: «يا ربيعة... قولي له... أتوسل إليك... فحتى أنا أتعذب..».

أشارت إليها أمي أن تسندها لتجلس، تستند على وسادة ممتلئة، تمد ساقيها الضعيفتين اللتين غدتا بلا لحم تزحر بألم وتقول بمشقة: «اسكتي قد يسمعنا... وهل ما فعلنا سهل للكشف عنه..»؟

تُرى ما الذي تخبئه أمي وهذه العجوز العفنة؟

أعرف دفاتر حياتها بدقة، أعرف كل التفاصيل، أعرف الزوايا المظلمة في حياتها، وولجتُ مبكرًا عالَـمَها السري، أجزاء غابرة سمعتها حكايات منها وهي في ثمالة، أمي كانت حين تسكر تكشف أوراقها وتبكي... أجزاء أخرى من أسرارها جمعتُها

في طفولتي ومراهقتي، بل كنت جزءًا من هرجها وصخبها، كنت أحيانًا سعيدًا بالطعام الوفير، وهدايا الرجال والفتيات، وأحيانًا وحيدًا في الليل في غرفة مغلقة بالمفتاح ولا يصلني غير صدى الغاب والناب، للدعارة رائحة غريبة في الفضاء والثياب والأغطية والجدران، أستطيع تمييزها من بين كل الروائح، كمن يميز روائح المستشفيات. للدعارة ندوب في نفوس النساء والأطفال، ندوب أكبر بكثير من الإحساس بالعار والهوان، ندوب تجرُّ دومًا نحو القعر العميق بقسوة ومهانة، للدعارة ثقل في الذاكرة يشد الطفل نحو الحضيض، يفتح له دومًا الجحيم في النظرات والهمسات...

ندوبي ظننتُها سطحيةً، ظننتُ نفسي قويًّا كفاية لتجاوز أعطاب الطفولة، للقفز على جدار الماضي، فالأم تابت... ولا أحد يختار أمه، لكن حين انفتحتُ على عالم المرأة، فشلت في كل العلاقات، لم أتجاوز قبلاتٍ باردةً بلا طعم ولا متعة، كثيرًا ما كان لوائي ينكسر قبل الفتح، كثيرًا ما كان الجسد الشهي يغدو كِبيرتًا يشعل النار في فحولتي، لكن عند الكر ترتخي كل ألويتي، وأفرُّ من الميدان صاغرًا ذليلًا...

هل أغزو يومًا أرضًا بكرًا لم يصلها أحد قبلي بلواءٍ لا ينكسر ويظل مرفرفًا إلى ساعة النصر...؟

أمي كانت عاهرة، وحين غدت سلعةً بائرةً غير مطلوبةٍ تحوَّلت إلى الوساطة، وأصبح بيتنا وكرًا للدعارة والليالي الحمراوات... لكنها تابت مذ لمست فيه أول مظاهر الفتوة،

هل شعرَتْ بحرجي حينذاك؟ لا أعرف... في الحقيقة لم تتخلَّ عن حرفتها كليًّا، بل فقط جعلَتْ لها نظامًا خاصًّا، تستغل زمن غيابي، أو ترسلني أحيانًا في سفريات، يأتي رجال مع نساء وتزعم أنهم معارفها كلما أُكرهَتْ على استقبالهم دون سابق تدبير.

كانت لا ترى حرجًا في طفولتي أن يضجَّ البيت بالصخب، وأن تحل بالبيت عاهرات لـمُدد مختلفة حتى آلفُهُن فأناديهن بالخالة فلانة والخالة فلانة، ولا تَخفُّ الحركة من رجال وشباب وكهول وشيوخ من طالب متعة عابرة، كان البعض يفضل المبيت فتخدمهم أمي، تطبخ وتسقي النبيذ وقد ترقص... وحين يزحف الغابات ويخرج الذئب من وجاره، تغلق عليَّ في غرفةٍ بمفتاح، فيلفني الظلام واللبس.

أسرار أمي أعرفها... فما الذي لم تكشفه بعدُ من علبتها السوداء السرية...؟ وما علاقة العجوز القصيرة بي؟ أي شيء ارتكبتا في حقي ويؤلم العجوزَ أشدَّ الألم أكثرَ من أمي وتريد البوح للتخلص منه؟

طفولتي مارقة عن النسيان، بُقعُها المظلمة عصية على كل وهج ضوء ملحٍّ، تتسكع في دواخلي كفرس برية جامحة، تزور خيالي طائفًا في خاطر أو همسًا في غفواتي لتصنع أحلامًا برائحة المواخير وأبخرة المجامر، وحين تتعب من صهد التجوال، تستقر في ظلال عيون الآخرين، أراها ساخرة... عارية... تهددني بالانهيار... شامتة... حوالي لا أحد ينبس

بكلمة واحدة ولا همهمة... لكني ألتقط سخريتهم ولَـمْزهم المكنونين، نظراتهم قد تبدو عادية لكن عندي معادية... عدوانية... مدينة... ربما يتغامزون وراء ظهري أو يقومون بحركات تهريجية، ويقمعون ضحكاتهم... لو أطلقوها لتمرغوا في التراب ضحكًا ودمعت عيونهم، جاءتني الأخبار أنهم استكثروا عليَّ مهنة المحاماة وقالوا: «ولد الشهبة محام، هذا عجب ليس بعده عجب، وهل سيدافع عن بنات أمه..»؟

يعلمون أن أمي غادرت ذاك المركب، منذ زمن ولم تعد لها غير زاوية في السوق تعرض عليها الخضر... الكل نسي الأمر، بل كانوا يخافون من الخوض في تاريخها، فربيعة تفتح لهم الخدود إن غضبت بالشفرات، وتشوه الوجوه، والبوليس في صفها، لكن ما إن بدأتُ مهنةَ المحاماة، ورأوا بيدي محفظة بنية وعلى كتفي البدلة السوداء الزهية، حتى غاروا فأغاروا، نكأوا جراح الماضي، استعانوا بالدفاتر القديمة لاستصغاري... تبًّا لهم... أنا ابن الشهبة العاهرة... أنا ابن سيدة الوساطة... وليكن... الآن أنا الناجح الوحيد بين شبابكم... الوحيد يا حمقى... ويا زبالة...

هل عليَّ أن أغفر لأمي...؟ هل أملك الخيار في لحظة الرحيل المبعثر...؟

ها هي قبل الرحيل بدل أن تأخذ معها كل الأسرار ومفاتيح العار، تنكأ بسرٍّ جديدٍ جرح الماضي، وترهن المستقبل فيما لا أدري... اللعنة...

الحقيقة... أنني أراوغ تطرُّفَ مشاعري بالاستهتار، بل بصناعة الأعذار وتكريس عقيدة الأقدار، أهو عطف...؟ شفقة...؟ أم خِسَّة ووضاعة مني...؟

لو تلخُّ العجوز وتصرُّ لتدفعها للكشف عن كل أسرارها ما زلت أنتظر رابط الجأش كعادتي... طبعًا هكذا أنا... هذا ما صرت عليه... هادئًا حتى في أحلك الظروف... ماذا سيكون أكثر ظلامًا وعارًا مما كان...؟ عادت العجوز مُلحَّة مُصرَّة والخيبة تعصرها: «سيعرف... المسكين... سيموت فيها...»

دخلتُ الغرفةَ، جحظت عينا المرأة من فزعٍ، وفغر فم أمي ذهولًا، ابتسمتُ وتظاهرت بعدم سماع حديثهما: «تأخرتُ عنكِ أمي... دخلت توًّا... كنت أدبر وسيلةً للسفر».

تنفَّست أمي الصعداء، ودارت عينا البتول في محجريهما، لوت شفتيها، ونظرت إليَّ نظرات غريبة، ثم أشاحت بوجهها عني.

قالت وهي تهم بالانصراف: «يا بني خذ أمك عند أهلها... اسمع ما قلتُ يا إبراهيم..». ثم ارتبكت واضطربت حتى كبت في تلابيبها وهي تقول: «الله يكون في عونك من الآتي..».

هل تقصد رحيل أمي وموتها، أم الآتي من أسرار لم تُكشف لي بعدُ...؟

دلفَتْ نحو الخارج آخذةً معها مفاتيح ألغازي.

7 ◀

اقتفيت أثر العجوز، خطوةً خطوةً، حتى ولجت دارًا خربة بدرب كناوة، ترددتُ لحظةً ثم قررت أن أدق الباب.

«يا ولدي أمك ربيعة أعرفها منذ كنت شابة مغنية جوالة مع فرقة «الكوامنجي» عباس، هربنا معًا معه حين زار الهضبة الحمراء... وصرنا من نساء الفرقة، أنا لي الدف، وهي ترقص... ثم تغيرت الأحوال، فسَكَنَّا آسفي لمدة، حتى استقررنا بالمدينة القديمة بالدار البيضاء... وما زلنا بها..».

نعم... أعرف أن أمي كانت عاهرة بمدينة آسفي، وأنها كانت المفضلة عند البحارة والصيادين، فهي «الشهبة» الشقراء البضَّة، والكل يطلب «الشهبة» صاحبة الجسم المكتنز، أذكر بيتنا الأول في «حي الصقالة» حيث عشتُ طفولتي الأولى قبل أن ننتقل إلى الدار البيضاء ونقيم بزنقة المخزن جوار ضريح سيدي بوسمارة بالمدينة القديمة.

تقول وهي تنظف زوايا عينيها من العمش:

«وماذا تريد الآن يا إبراهيم؟ تريد أن تعرف الحقيقة... يا بني... أي حقيقة...؟ قد تؤلمك الحقيقة... رغم أنها ستحررني من الوجع...».

هل أريد فعلًا معرفة الحقيقة؟ ماذا سأقول للبتول وهي تعرف قيمة ما احتفظَتْ به منذ سنين...؟

لو أسترجع لوائي المنكسر...

أتنازل لكِ عن كل حقيقة...

لو أسرج صهوة الشهوة...

وأفتح طريقًا لي موحشة...

هل فعلًا أريد أن أعرف الحقيقة؟ ماذا لو خرجتُ توًّا ونسيتُ كل الحوار، وأسدلتُ الستار عن الماضي؟ فما ستقوله البتول قد يؤجل دفن الماضي، قد يحيي ماضيًا جديدًا، قد يكون الضربةَ القاتلةَ...

هل عليَّ أن أتبع خطى هذا الفضول القاتل حتى النهاية؟

النهاية...ما أدراني أنها النهاية...؟ ليست هناك نهايات... النهايات أسطورة... هناك دائما بدايات... النهاية احتيال لغوي على الوجود والخلود.

كأني أسمع صوت جلال يتردد في أعماقي: «لا تحفر كثيرًا أيها الشاعر... فيخرج لك الثعبان... اكتفِ بالسطوح فهي أكثر أمانًا وراحة...».

أنا محامٍ حديثُ التخرُّج، لكني شاعر قديم التوهُّج، إن لم يكن مثلي شاعرًا مَن يكون...؟ الشعر بإمكانه أن يرمم الخلافات النفسية الداخلية، وحده الشعر يرافق الشاعر إلى القبر ويضع ابتسامةً على شاهده... الشعر لا وصية له، فهو يورث معانيه وجماله وأعراسه ولوعته وأغانيه للغجر... للعابرين... لسكان المدن السفلى... للمنفيين... للمطرودين من أحلام أوطانهم... وأنا شاعر من المدن السفلى، ومطرود من جنة وطني، وغجري تسكن روحي عربة قديمة على الطريق، وعابر هنا، لم أجدد بعد بطاقة هويتي المنتهية الصلاحية...

قال ذات ليلة جلال: «عليك أن تهتم بالمحاماة لتأكل الخبز... الشعر لا يفتح بيتًا ولا يؤدي مصاريف دراسة الأبناء...».

تنظر العجوز البتول في عيني مترددة زائغة النظر، يقفز الخوف والقلق من عينيها الغائرتين، تتعرَّق وتفوح منها رائحة نتنة، أفتقد عطر علوان الأقرع، قد أطيقه ولا أطيق عفونة الأجواء، الدعارة تبصم الأماكن برائحةٍ لا تتبدَّد، يلج رجل ضخم الجثة زائغ البصر، يتمايل سكرًا: «من معك يا البتول...»؟ تنتفض واقفةً بغضب تجرُّه من تلابيبه، وتدفعه خارج الغرفة: «اذهب لتنام... لا يهمك الأمر...». يطرق الشيخ الجبين، يمضي صامتًا ثم يهمهم بكلمات يخلطها بالسعال... بعد لحظات يعم الصمت...

قالت وهي تعض شفتها السفلى:

«هذا زوجي بوشعيب... لا تخشَ شيئًا... هو طيب لكنه فضولي.... سأقول لك الحقيقة، لكن لا تقل لها إنني مَن أعلَمَكَ... اسمع... لا أذكر العام... لكنه كان فصل الربيع، منذ ما يقرب من ثلاثين سنة... ألستَ الآن تبلغ من العمر ثلاثين سنة أو أكثر بسنةٍ أو سنتين؟... ما علينا... كنتُ وأمك والفرقة الغنائية في عُرس ب «أرض الغريب»، بالهضبة البيضاء، خدمنا الناس حتى فرحوا بنا وما فرطوا في العطاء ولا في الطعام، كان عرس زواج دامَ أيامًا والعروس وافدة من الجبل... إيه... ما زلت أذكرها... جميلة بيضاء كالثلج، والعريس عتروف ابن فاسق خبيث، المسكينة، باعها والدها مقابل بقرتين وخمس نعاج... ما علينا... قفلنا عائدين عند الفجر، فممرنا بعين ماءٍ تسمى عينَ الراعي، لأنها انفجرت من بين الصخور بأرض أولاد الراعي، فجعلها مشاعًا بين الناس، وقفًا على روح أبيه، نزلَتْ ربيعة بخفَّة لتشرب، وتبادلت الحديث مع امرأة كانت تغسل الملابس ومعها طفل عمره لم يتجاوز سنةً، اختفت الأم لحظةً بين الأشجار بعدما أوصت ربيعة بوليدها، لكن... أمك سامحها الله أسرعت إلى العربة والوليد بين يديها وهي تحضُّ عباسا ناهرةً إياه على حث الفرس، حتى اختفينا بين الأحراج بغابة قريبة، سمعنا التصايُح ونحيط أم جريحة، وما لان قلب ربيعة، ظلت تداعب الطفل حتى تلاشى التصايح والبكاء، لا أحد يعلم السرَّ غير عازف الكمنجة عباس وأنا صاحبة الدف وراقصة أخرى ذبحها عسكري كانت عشيقتَه فوجدها في سرير القبطان..».

أقف... أذرع الغرفة مجيئًا وذهابًا... أرى العجوز تبحث عن أثر الصدمة في وجهي، أشعرها مستغربة، أنا نفسي لا أفهم سر هدوئي الغريب، تقول لي وهو تسوي منديل شعرها: «أنت يا إبراهيم هو ذاك الصبي... وأهلك من أرض الغريب بالأرض البيضاء... في الحقيقة لم أكن موافقةً، لكن ربيعة قاسية القلب، وعنيدة لا تقهر ولا تصد، لم تسمع لأي أحد منا، هددت «عباس» بالقتل وهي تلوح بالسكين، فسكتنا خوفًا منها...».

سرُّكِ انكشف يا ربيعة... لم تكوني عاهرةً فحسب ولم تقطعي حبل خطاياك بحرفة الوساطة، بل ظللتُ أمام عينيك جريمةً حيَّةً لا تتقادم، بل تكبُر كلما كبرت... الآن أفهم سرَّ تلك النظرات إليَّ من حين لآخر بخوف وارتباك، كنت أمثِّل بالنسبة إليكِ الخطيئةَ اللحوحة العنيدةَ الصارخة القَاضَّة للمضجع، التي لا تُعَفِّي أثرَها رياحُ الزمن ولا شيخوخة الذاكرة.

هل ما زالت جديرةً بجنازةِ أمٍّ توفر لها السلام والعبور الآمن...؟

أجُرُّ خيبتي عائدًا إلى الدار... ذبحَتْني ربيعة مرةً ثانيةً... أخطو نحوها، أتفرَّس في الوجه الغارق في الوهن والقسوة... أنظر إليها بحيادٍ، بلا عاطفةٍ ولا لواعج، أريد خنقَها... أريدها أن تتعفَّن في سريرها بغائطها وتموت مختنقةً ببولها... ترفع نظرها المتعب نحوي، تبتسم... صرت عاجزًا عن الابتسامة في

وجهها، ألوي شفتي، أفكر في خنقها مرة أخرى... هذه المرأة منحتني العار والخزي ولم تكتف بذلك، بل سرقت طفولتي وحياتي الحقيقية...

تلكَّأْت في السفر، هي تلحُّ وأنا لا أردُّ، هل أنتقم منها؟ هل أصبح عذابها يريحني؟ تدق الباب رقية بنت الخياط، فلا أفتح، أترك أمي... أقصد ربيعة تتعفَّن في بولها وغائطها، أتركها تختنق بعفنها، ونظراتي القاسية.

علِمَتْ أني ما عدتُ أفتح الباب لرقية، نادتني بضعف وخوف، دخلْتُ غرفتَها لم أجلس على حافة الفراش، قبضْتُ يدي وراء ظهري، حملقَتْ في مليًّا ثم قالت: «هل قالت لك البتول شيئا...؟ لا تصدقها الله يرضى عليك»... لم أرد عليها، صمتُّ حتى رأيتُها تكابد الأمَرَّيْن، وجعَ المرض، ووجعَ اللحظة.

قالت: «لا تدعني أتعفن في سريري... خذني إلى الهضبة الحمراء...».

غدت ربيعة فقط... لا غير... سأرمي بها في عفن بلدتها لتتعفن في حفرة عميقة بمقبرة مجهولة... لتذهب إلى الجحيم... حين أفكر مليا، أشعر بارتياح أنها ليست أمي الحقيقية، لستُ الخاسر الأكبر... صار لي أم مفجوعة في مكان بأرض الغريب... لستُ لقيطًا ولا ابنَ زنا... وهذه العاهرة لم تكن أبدًا أمي... سأدعها هذه الليلة تتعفن في بولها وغائطها... لا... لست قاسيًا لهذه الدرجة ستكون الغريبة التي أشفق

عليها... سأدع رقية تنظفها من الخارج، أما الداخل فلا ماء فوق الأرض يغسله، ولا عطر العطارين، يطرد روائحه العفنة.

دخل علينا مالك البيت الحاج السلامي ليلة السفر، وقال وهو يمرر لسانه على شفته العليا، ويسوي سرواله تحت كرش فائضة، وقد ضغط على أنفه بأصابعه وقال متقززا: «هل الحفرة... حفرة المياه العادمة... ممتلئة ألم تفرغوها...»؟

كانت ربيعة تقول كلما رأته قادمًا يسوي ربطة عنقه: «لا أعرف لهذا السلامي أصلًا ولا فصلًا، ولا أعرف من أين أتى، اشترى أكثر الدور بالحي، وأصبح المالك الكبير، يأتي معه رجال من عِلية القوم، يطوفون الأحياء، ويبيتون في شقته بالعمارة الجديدة، ثم يرحلون، وفي الغد يشتري دارًا أو أكثر، أو يُشهِر «رسوم» مِلكيَّةٍ، لا أحد يعرف متى تم البيع، حتى دور اليهود أخرج رسومَ بيعه لها، ودار اليهودي «معيمران» الكبيرة ملكها بعقد بيع والرجل ميت قبل عشرات السنين وقبرُه بروضة المعيارة...».

هل نسِيَتْ ربيعة أم تناست أن الحاج السلامي هو «سويلم» كما كانت تناديه أيام زمان، وكان زبونَها الذي تشتاق إليه البنات وتتنافس عليه لسخائه، يأتي من حين لآخر وتخدمه ربيعة كل الخدمة، هي تعرف الرجل والرجل يعرفها، بل هي من جعلته يألف الدار البيضاء، ويعتاد نُعمَها ولياليها، لكنها تعرف «سويلم» البدوي الطويل الأشعث الشعر، النحيل

البنية، الغائر العينين الذي كان يقاسمها والبنات أجواء الليالي الحمراوات التقليدية، أما الحاج السلامي الذي تغيَّر ورمى الجلباب والأسمال، وارتدى البدلات وربطات العنق، وتعطَّر بعطور العجم، ولبس لباس أهل المدينة من أغنيائها، فهي تنكره وتتنكر لأيامه، وهو نفسه لا يذكر الماضي، ويريده أن يُدفن ولا يبعثر في أوراقه، هو نفسه كلما أثار أحد ماضي «سويلم» تجهَّم وقطب الجبين، فأرغم المتحدث على تغيير الحديث، ربيعة تنكر الحاج السلامي الذي فاضت النعمة في وجهه وجسده، وتدلَّت كرشه، وامتلأ حنكاه لحمًا، وصَفَا وجهُه من سُمرة القهر والشمس، هذا السمين الممتلئ حيويةً ونشاطًا هو نفسه «سويلم» الذي ملأ أيام زمان دارنا صخبًا ومجونًا... يا ربيعة... فكيف لا تعرفين له فصلًا ولا أصلًا...؟

ربيعة لا تحبه ولا تستلطفه، ولا تتورَّع عن النبش في سيرته أمام نسوة الدرب «لقد كان مزارعًا في جبال الأطلس، يزرع القنب الهندي، ثم تحوَّل إلى التجارة فيه، وبين ليلة وضحاه صعد كالصاروخ...» مثل هذا الكلام كان يريح علوان الأقرع الذي يقول كلما رمقه في الحي: «جاء ولد الحرام... كرش الحرام...» توقف مؤخرًا عن النبش في سيرة الرجل، وقال لي وهو يفتح دكانه ذات صباح: «ما العيب في الرجل، جاء ليُخرج الناس من بيوت قد تسقط فوق رؤوسهم، وهو يجزل لهم العطاء... أمك ربيعة... هداها الله تكرهه بلا سبب وهو فقط يريد الخدمة»... علمت فيما بعد سرَّ تغيُّر رأي علوان الأقرع

في الحاج السلامي، فقد صار هو سمسارَه المفضَّل، وكل بيت يُهدَم له فيه عمولة وهدية وقبلة وليلة في الشقة.

وحدي أعرف السبب الكامن وراء هذا... كره ربيعة للحاج السلامي، الذي كاد يملك المدينة القديمة كلها، وما إن يشتري دارًا قديمة حتى يهدمها ويبني محلها عمارة، وكلما هدَّ دارًا أشعل نارًا في قلب ربيعة، فتتغير حولها الخرائط، وتُمسَخ الفضاءات، وتجف فيها منابع الذكرى التي تُطفئ بها ظمأَ الشوق والحنين، حين يزور هذا الكهل الأنيق اللبق عمارتَه المنتصبةَ أمام دارنا، ويعتزل في شقةٍ بها، يَؤمُّه رجالٌ من علية القوم في أبهى الثياب والبدلات، وتقصد شقتَه فتيات صغيرات جميلات عصريات متبرجات بأزهَى التنانير والسراويل الضيقة المثيرة، ذوات الصدور الممتلئة، تفوح عطورهن الباريسية، فتثير شبق الشباب، ويوقعن بكِعَابِ أحذيتهن على الإسفلت؛ فيشعلن كل نزوة كامنة... يركنَّ سياراتهن العجيبة في باحة سيدي بوسمارة، ويُدخنَّ السجائر الغالية، وينظُرنَ في الأفق، كأن العالم الذي حولهن لا يوجد...

هي... فقط... هي... تغار من عالمٍ جديدٍ للدعارة الراقية، غطى على زمنها، وخطف من باقي عاهرات الدار البيضاء التقليديات زبائنهن...

في الصيف الماضي هدَّ الحاج السلامي بيت «نجمة التدلاوية» أشهر طباخة في الأعراس، وشيَّد عمارةً عالية

من الطراز الجديد، بمصعد وبواب دائم القعود في الردهة، وسماها «عمارة من فضل ربي»، رحلت نجمة وزوجها وسكنا في شقة في ضواحي الدار البيضاء، حين تزورنا من حينٍ لآخر تندب حظها وتنحط وهي تلطم فخذيها: «إياك يا ربيعة، أن تتركي له الدار، غرَّنَا ببعض الملايين، فسكنَّا في شقة بعمارة «تنغل» بالسكان، لا نعرف بعضنا البعض، لا عزاءَ ولا سلامَ وتهاني... لا أحد «يقيم حسابًا» للجوار، الشباب يسكرون على العتبات، والليل مخيفٌ... لا أحد يستطيع الخروج... في آخر أيامي يا ربيعة نُفيت من الدار البيضاء...».

لا أعرف من أين أتت أمي بالأخبار لكنها كانت تردُّ على نجمة التدلاوية وهي تلوي شفتيها: «يقولون إنه الواجهة فقط، «كاري حنكو»... وإن هذه الأملاك لشخصيات خفية من الناس الكبار...» وحين تغادر نجمة دارنا مبكِّرة لتلحق بالحافلة الوحيدة التي تربط وسط المدينة بسكنها الجديد في أقصى الدار البيضاء، تهمس ربيعة لبقية النساء: «أعرفها... تأكل الغلة وتسب الملة... هل شاورتنا حين أخذت الملايين ورحلت بلا سلام...؟».

حينما بلغتُ الحُلُم، صرتُ قادرًا على التمييز، وشعَرَتْ بغضب فيَّ صامتٍ مقموعٍ، قلَّ دخول الرجال ولم ينقطعوا، لم يعودوا يبيتون في الدار، وانتهى عهد الليالي الحمراوات، أحيانًا كنت أُباغت أحدهم رفقةَ عاهرةٍ بالبيت، تجرني من يدي وتدخلني إلى الغرفة الأخرى، وتقول: «عندنا ضيوف يا ولدي لا تخرج».

ثم بدأَتْ تشيخ، فشاخ زمنها ولهْوُها، وبارت تجارتها، وظهر في سوق الدعارة جيل جديد وأعراف جديدة، جيل الحانات الساهرة والعُلَب الليلية الصاخبة، وأمي لم تكن إلا مومسًا من جيل قديم لا يتردد على الحانات، فاستعانت على صروف الزمن بما جمعت من أموال، وذات صباح وجدتها تبيع الخضر في السوق العشوائي.

هل أصرخ اليوم فرحًا في الزقاق: «ربيعة ليست أمي... ربيعة ليست أمي... العار عارها وحدها...».

لا... أيها الأحمق... سيقولون تبرَّأ منها عند موتها، سيكرهك الجميع، فربيعة المومس القديمة لا يكرهها الناس، بل يحترمها الكل، ربما يخافونها، فقد كانت جبَّارة، لا تتردد في استعمال السكاكين والشفرات... وشظايا القنينات... لكنهم الآن مِن شِيعَتِها، يُشفقون عليها ويبكون في حضنها، كيف يتحمَّلون رائحة البول والغائط؟

وهي تحتضر تريديني أن أحملها لتدفن بالهضبة الحمراء، تريد الموت بعيدًا عن الدار البيضاء... ألم تقل يومًا إن هذه المدينة عطوف تتسع للغرباء والفقراء؟

الأهل بالهضبة الحمراء تبرؤوا منها منذ زمن منذ هربت مع عباس «الكوامنجي» وهي شابة غضة مثيرة... هربت بعدما خطبها ولد الجاري قالت يوما: «ولد الجاري... لو تزوجته لكنت الآن ميتة، إما بأنفاسه العفنة أو بجثته التي تقطع أنفاس النساء، كان قوي البنية، سامق الجسد، غضوبًا كالثور، عفِنًا كالخنزير،،

لكن تعافه الكلاب والقطط، قلَّما يغتسل، لكن أباه ترك له قطيعًا من الغنم، قبل أن يقلَّ الماءُ بالهضبة، وتبور الزراعة، كان غنيًّا، وكانت العاهرات في السوق يعرفنه، فيسخرن منه، ويهربن خوفًا إذا طلبهن، وأنت تعرف السبب فلا فائدة في التوضيح، لن أفصل لك، كان يخنق المرأة التي تحته، يُقبِل عليها كالثور، فيأخذ ما يأخذ أخذ الحيوان الشرس، وينهض عنها مرة ويعود حتى تصير جيفةً، لم تتحمله البغايا، فكيف لي أن أتحمله، لم يرَ فيه أبي عفَنَه ووسخَه وحوانيتَه، ولم يأخذ بما سمع الجميع عن مومسات السوق اللواتي لا يَقبلْنَ به رغم كل الإغراءات، رأى أبي عددَ غنمه، والمهرَ الغالي، والمالَ الوفير، قال حين اعترضتُ بأدب: «تخرجين من دار أبيك، وتموتين عنده... لا يهم... ذاك مكتوبك..». لهذا هربتُ... هربتُ... وتبرَّؤوا مني... فقالوا: «عاهرة... الكلبة... هربت مع عباس»، والحقيقة هربت من الجحيم الذي كان ينتظرني لو تزوجت ولد الجاري الذي لا يغير جلبابه أبَدًا، ولم يره أحد يغتسل..».

هل أصدقها...؟ هل هربَتْ من الوحش ولد الجاري، أم لبَّتْ نادي الوحش الذي سكنها حتى أعماها، فهربت في جنح الظلام، تاركةً خطيبًا في لوعة، وقبيلةً في سوء سمعة...؟

سآخذها إليهم وليكن ما يكون، تلك رغبتها، ستُوارَى التراب في منطقة نائية، ربما عانت دومًا من الغربة والوحدة، ربما تريد جوارًا مؤنسًا مع الموتى... لم تعد أمي...

8 ◀

قال أحدهم يوما: «الشهبة عاهرة ولكنها أم صالحة...». أرأيتِ أنني كنتُ مجدَكِ الوحيد...؟ أرأيتِ أنني كنتُ شفيعك الوحيد...؟ وقال آخر: «الشهبة والحق يُقال ربَّتْ إبراهيمَ أحسن تربية، ما فعلته مع الصبي حتى صار ما صار، يشفع لها عند الله يوم القيامة». لم يعد لكِ أحد يشدُّكِ من يدكِ ليدخل بك جنةَ عدن... قد أحكي لهم الحكاية من البداية، فأترك لكِ ذنبًا جاريًا، بدلَ صدقة جارية ودعاءً قاسيًا، بدل دعاءٍ لولد صالح... وهل أنا صالح؟ أفكر أن أُجيِّشَ القلوبَ والصدورَ ضدكِ لتُرفَع أكفٌّ لتهوي بكِ في أعماق الجحيم، وتنشط ألسن نسوة كلما ذكرْنَ سيرتكِ تناسلت اللعنة واللعنة واللعنة... لن أدعكِ ترتاحين في الجحيم... الجحيم درجات... لا بد أن تكوني مع الشياطين والأبالسة...

نطقت البتول فسقط آخر قناع...

هل أمضي وأترك جسدك يتعفن وتنهشك الغربان؟

قبل أن تنطق البتول... كنتِ عاهرةَ، لكن كنتِ أمًّا مناضلة، هذا ما ردده جلال... فهو لا يعلم تحالُفَكِ السري ورجال الفجر، لكن كنتِ أمًّا تدبِّر حياتها بين أنياب الوحوش والمفترسين بشراسة الأمومة، كنتِ قِبلةَ اللذة، لكنكِ كنتِ في الوقت نفسه نجمتي الوحيدة في حلكة طفولتي، أُبدِّد كل عرق الأجساد المترنحة، وأقمع صور الطفولة الغارقة في الصخب والتهتك وأنا أمنحكِ هوية الأم، تلك الهوية التي لا تدوسها أقدام الأبناء مهما خبثت الأمهات وجنحنَ نحو شواطئ الخطيئة، والآن حرقتِ مركب العودة إلى ضفة صفحي، لم تعودي أُمًّا يليق بها البر والعرفان مهما تغيَّرت الظروف والأزمان، صرتِ الأخرى... صرتِ الجلَّاد... صرتِ أفعَى حرمت أمًّا من رضيعها ومن فرحة المهد والنهد، صرتِ خصمي... لمَ لا أتركِكِ في الدار تتعفنين وأمضي؟ لـمَ ما زلت هنا معكِ منشغلًا بمصير جثتك العفنة؟ لستِ غير بقية حياةٍ عفنة... لمَ أهتم...؟ لمَ لا أغلق الباب ورائي وأختفي...؟

ها أنا أحملكِ سرًّا وليلًا إلى حيث طلبتِ لتُدفني، في بلدٍ تنكَّرت لكِ، كما تنكرتِ لتربتها، وغرستِ في بيوتها سُمَّ التمرد على الآباء، وبذرة رذيلة كبرت فأعطت شجرة الغواية، فطلبت كل الفتيات ثمارها هربًا من القهر والفقر، قبل هروبها كان القهر والفقر يُطاقان بلا ضجر، كانا قدرًا وقضاءً، كان حياتَهم وبيئتَهم، حين خطوتِ بعيدًا، وجاءت أخبارِكِ، تحوَّلُ الفقر

شتيمةً، والعوز تهمةً، والقهر سُخرةً، فوصل وباءُ الهروب، ثم لم يعد الأمر يحتاج هروبًا في جنح الظلام، سافرتِ الفتيات وعدنَ بالمال والحلي، ثم ألِفَتِ الهضبةُ الحمراء نِعَم المدينة التي تأتي إليهم حوالات مالية، وبضعًا وأقواتًا وهدايا... اختفى سؤال: «من أين هذا يا ابنتي»؟

ها هي هضبة البلدة الحمراء قد حمَّلتكِ عارَها في البداية وعارَ مَن أتى مِن بَعدكِ بمثل ما فعلتِ، ها أنا ذا أرمي بكِ بقية حياةٍ عفنةٍ في المقعد الخلفي لسيارة كبيرة يقودها سائق سري لم يرتح بعدُ من رحلته الطويلة إلى سوس، بجانبكِ رقية ترشُّكِ بعطر أبيها، وتقلِّبك كلما آلمكِ جنبٌ أو ضلع، غدوتُ أتحمل أنينَكِ، غدوتُ لا أهتز للفواق الذي أزعج السائق حتى دخن طول الطريق بشراهة... تنظرينَ إليَّ من حين لآخر بعينٍ زائغة، كأنكِ تريدين قول شيء لكن لا تجدين الكلمات، لم يعد لكِ الحق في الترافع، ترافعتُ من أجل قضيتكِ مليونَ مرة مع نفسي ومع نظرات الناس، لكن ما كشفَتْه البتولُ يجعلني متبلِّدَ العواطف... لا أدري هل أكرهك أم أحبك؟ لا لم تعودي في القلب... سقط الأقنوم، وانكسر ما لا يجبره لا الزمن ولا الصفح، جريمتكِ أكثر من الخيانة والغدر، جريمتك لا حكمَ فيها غير المشي بقدمين حافيتين على شظايا الزجاج.

ها هو الولي الصالح سيدي بليوط لا ينظر إليكِ، وقُبَّته كأنها تتنكر لك، ما بات الحمام بين ثنايا القرميد كعادته، وحدها رقية ترافقني في هذه الرحلة المبعثرة، ترش السيارة

من حين لآخر بعطر علوان الأقرع، وعلوان الأقرع أقسم أغلظ الأيمان إلا أن يرافقني، والسائق متجهِّم وإن كنتُ سخيًّا معه، لا يُخفي ضجره ولا تبرُّمَه نظرات قاسية، وشهقات ترسل إشارات التذمر...

نصعد الهضبة الحمراء، نرتقي طريقَها بين الصخر والرمل، فترتقي في روحي درجاتُ الألم والوجع، هي تئن لكل اهتزاز، وأنا أضجر للوجوه الضامرة، والعيون الخائفة، والأرض البيضاء التي ألفت الريح والغبار والبؤس... كيف يعيش الناس هنا؟

قال علوان الأقرع: «الناس هنا يعيشون بالقليل، لن تجد في الهضبة الحمراء غير الشيوخ والعجائز والنساء والمرضى والأطفال، الرجال والشباب بل الفتيان منتشرون في الدار البيضاء، والمدن الأخرى، يمدون كل شهر أهاليهم بالمال ليُتقنوا حاجاتهم من السوق الأسبوعي».

«آه... ويعيبون عليكِ يا «الشهبة» هروبَكِ من الموت المؤجل البطيء...؟ أين فتيات الهضبة الحمراء»؟ يقول علوان الأقرع كأنه تسلل إلى دواخلي وسمع مناجاتي: «هن خادمات في بيوت الناس بالمدن، أو...» «قلها يا أقرع... لا تخشَ... قل عاهرات في بيوت الدعارة أو على أرصفة المدن المتعطشة للشهوة والصخب... قل أكثرهن هاربات... طوبى لكِ يا ربيعة... لم تعودي الوحيدةَ، لكن لكِ شرف البداية، شرف قص شريط تدشين هذا الدرب، شرف الريادة، لن يُعيِّروكِ، لن ينظروا إليك

كجالبةٍ للعار للهضبة الحمراء، ففي كل دار هاربة أو عاهرة، أو مومس بهوية خادمة بيوت مزيفة...

لا يفعل الشيوخ هنا أي شيء يُذكر، حتى الصلاة يتكاسلون عنها، بتدخين القنب الهندي، والجلوس على قمة الهضبة ومراقبة الطريق السيار، راعي غنم وحيد منعزل يسرح بقطيع جائع من النعاج، على سفح الهضبة، حين توقفتُ لأساله عن دار «أهل الشهبة»... نظر إلي بعينين متعبتين تشعان حقدًا ونقمة، واقترب متثاقلًا من هرم ووهن، وهشَّ بعصاه، وقال: «تقصد... خيام أولاد جران... هم هناك... قرب المسجد... لكن مَن أنت..»؟ تلك عادتهم... والفضول ليس عيبًا هنا بل خصلة ومهارة يستجليان بهما الغيب ويفكان اللغز، «أنا ولد الشهبة..»، رأيت في عينيه الذهول والقلق، فغر فمَه، هشَّ عصاه لم يرد عليَّ، وهمَّ بالذهاب ثم التفت إلي وقال بحنق: «صار لكِ يا الشهبة والله الأبناء... وكيف حالها تلك الأفعى»؟

ابتسمتُ وقلتُ: «ها هي في السيارة... مريضة مرض الموت»... هز رأسه وتفرَّس فيها وقال: «تموت... ههه... لقد ماتت منذ زمن، ومات معها أجمل ما في البلدة... وهل الهضبة مزبلة للجيف...»؟

قال أخ ربيعة الأكبر السبعيني حين علم بالحكاية: «ذاك الحفيان ولد الجاري، كان خطبَ ربيعةَ شهرًا قبل رحيلها...» تفهَّمتُ سرَّ غضب الراعي الشيخ، الحفيان ولد الجاري ضحية

ربيعة، هربت فهربت الحياةُ منه، اختفت فأخذت معها حلم الأسرة والدار والأبناء، وعطلت فيه كل شهوة لسرير دافئ، أخذت فرحتَه وورَّثَتْه عارًا أكله من الداخل بصمتٍ، اعتزل الكلَّ في خربة على سفح الهضبة، وظل وحيدًا بلا زوجة ولا رفيق، إلا الكأس من خمر رخيص وحشيش وكلب شاخَ لا يهر ولا ينبح.

ماتت ربيعة منذ يومين، ما زلت هنا بأرض الهضبة الحمراء... أرض الشيح والريح...

لكنها لم تُسلِم الروح بخنوع، لم تمض بسلام دون مقاومة، ظلت متشبثة بالحياة ثلاثة أيام، صدرها وحدها يعلمنا أنها ما زالت حية أو شبه حية، زاغ البصر ووهن العقل، ليتني أعرف فيما كانت تفكر، كانت حتمًا تسمعنا، شعرتُ بخوفها... كنت أنظر إليها وهي تحتضر، فتزيد حدة احتضارها... جاء الزوار من كل حدَب وصوب، فضول قوي لمعرفة مصير «الشهبة» يجرُّهم جرًّا، ويغلفونه بالنحيط والبكاء، صدقَتْ ربيعة... هذه المرة... هم مزيفون... منافقون، أكاد ألتقط ضحكات الشامتات من نسائهم، بل في عيون النساء أقرأ الشماتة مختلطة بالفرح والترح... يبكين وحين يختفين وراء الحيطان، يُحدِّثنَ أنفسهن بما يُرضي حقدهنَّ.

الكل بكى، مَن عَرفها ومَن لم يعرفها... إلا أنا... الدموع لا تُستدعَى... ليست لها أزرار إلا عند أهل الهضبة الحمراء...

وفي حديثهم بعيدًا عنَّا، استدعَوُا التاريخَ، وأعادوا تركيب مقاطع قصة الهروب مع عباس الكوامنجي، وجاؤوا بشهود عاشروها أو اقتربوا منها بمدينة آسفي، وأضافوا من خيالهم ما يُرضي ضغائنهم، لكنهم لا يعرفون إلا القليل عن حياتها بالدار البيضاء... ولا يعرفون عني سوى ما يعتقدون أن «عباس» الكوامنجي «نفخ» بطنَها وهرب، وأنا ابنه، وأن البتول قالت لهم يومًا، إن ربيعة سحرت لها، فلم تشعر إلا وهي تتبعها دون إرادةٍ منها، فغفروا لها، وصارت ضحية، وسُمح لها بزيارة الهضبة الحمراء، بعدما جلبت الهدايا للنساء، وهنا هنَّ مَن يُقرِّرنَ ويحسمنَ في أشد الأمور.

وحده كان حزينًا يبكي في زاوية مظلمة وبحرقة... الراعي «الحفيان ولد الجاري» وحدَه اقتفى موكب دفنها خِلسة، وانتظر أن ينفضَّ الجمعُ، وجلس عند صخرة شاهدها، لم أسمعه، لكني رأيت ظلًّا أكثر حزنًا من صاحبه.

قال خالي الأكبر السبعيني والمناسبة اسمه «ميلود»: «ما تركَتْ أمُّكَ إرثًا... هربت وجدُّكَ حيٌّ، فأورثنا كل شيء». أنظر إليه بابتسامة ساخرة وأقول وأنا ألهب سيجارة: «كلَّ شيء..»؟ يرتبك، يفهم قصدي أقول في خاطري: «صدقتَ أيها الشيخ، أورثتكم كل شيء العار والخطيئة... أنا لستُ منكم لم أرث غير الجراح... ههه».

يزحف الليل على الليل في بلدة الجزع والوحشة، لا صوت

هنا غير صوت الريح والنقيق والصرير، أنظر من أعلى الهضبة الحمراء، سكون قاتل يعم الأرجاء، صوت مؤذن لا يبين، لا تَسابُقَ نحو المسجد، قد يصلي الإمامُ وحده صلاة المغرب، المسجد هنا علامة على السيادة، كل عشرة «خيام» ودور من فرع واحد يبنون غرفةً واسعةً من الحجارة، ويرفعون صومعةً قصيرة، ويُعيِّنون حافظَ قرآن إمامًا على شرطهم، العُشر من حصادهم لا غير... ويفضلون إمامًا أعمَى، لا يتجسَّس على نسائهم وهنَّ على السطوح، كم هم منافقون... تلهمني الهضبة وسكونها فأغوص في الماضي القريب، كانت هذه المرأة التي ترقد في قبرٍ من قبور الهضبة الحمراء قبل شهرٍ أعزَّ ما لديَّ، كنزي وخيمةَ سكينتي وطمأنينتي، لا يهمُّ إن كانت عاهرة ثم وسيطة، كنت مستعدًّا للغفران، رغم أن مشاهد الفتيات شبه العاريات المتبرجات في بيتنا ما زالت عالقةً في ذاكرتي... كنت مستعدًّا أن أتركها ترحل بسلام... كانت الأم... ولتكن ما كانت... كانت الحضن الدافئ ولتكن ما كانت... كانت منتهى مداي، وأعز أفراحي وأجمل روائحي... نزيفي في الروح، كنت أضمده بالتماس الأعذار في الأقدار... كيف أنسى الرجال الذين دخلوا وخرجوا صاخبين بمُجونٍ وعربدة، الطابور اليومي... وربيعة تنهر وتزجر، ورجالها الأشداء يسحلون السكارى والجبابرة، صخب السكارى ما زال عالقًا بذاكرتي، وجبروت ربيعة لا يُقاوم، ربيعة كانت تدافع عن حرفتها بالسكاكين والشفرات وتكسر القنينات وتكرُّ على المتجاسر أو المتطاول... ربيعة

كانت إن رفعَتْ صوتها في زنقة المخزن ارتعدت باقي الأزقة والدروب...

كانت تغيب من حين لآخر شهرًا... شهرَيْن. وتعاود الظهور... وتقول: «كنت في سفر..»، وحين يقول الغياب قصير المدة تقول: «زرت صديقةً أو مريضة»... صغيرًا كانت المومسات في الدار يتكفَّلنَ بي، وحين اشتدَّ عودي تكفلتُ بنفسي، علمتُ فيما بعد أنها كانت تمضي مددًا متقطعة في السجن، إلى أن غدا ضباط الشرطة من زبائنها، وغدت مخبرةً لهم، ولها خدمات خاصة للإيقاع بالمعارضين والمجرمين وتجار المخدرات، فتحررت من الرقابة، وغدت دارنا قاعة تحقيق سرية ناعمة في غرفة مخملية، فصمت أهل الحي إلى الأبد، وصارت تُدعَى الحاجَّة ولم تحجَّ بعدُ.

عدنا أنا وعلوان الأقرع إلى الدار البيضاء، وظلت رقية هناك، قال أخ ربيعة ـ خالي المفترض ـ قبل أن نرحل بليلتين: «دعوها هنا... سأزوِّجها ابني الطاهر... الفتاة أعجبت الزاهية أمَّه... قالت: الفتاة حذقة وشغالة وكالنحلة».

الطاهر في الدار البيضاء، استعجلوه فحضر، نظر إليها، رأيتُ الدموع في عينيه، والحسرةَ والإحباط، قال أبوه: «خطبناها لكَ، في العيد الكبير القادم نقيم العرس، وستظل الفتاة معنا، لكن سنقرأ الفاتحة، ولن تدخل عليها حتى يأتي الموعد». قَبِلت رقية بنت الأقرع وقَبِل علوان الأقرع بالصفقة، ولم

يتمرَّد الطاهر على أبيه وقد زار حتمًا مواخير الدار البيضاء، ودقَّ أبواب بيوت الدعارة في الأزقة المظلمة، لكنه سيفعل ما توقعت، رقية صالحة للزواج والإنجاب والبيت فقط، ستهتم بكل صغيرة وكبيرة، سيرضى عنها الشيخ والعجوز والأهل والأقارب والزوار، ستخدم الجميع بفرح وطيب خاطر، لن تتبرم... لا تحتجَّ... ستظل شمعةً مشتعلة، إلى أن تنطفئ في صمت من ريح عابرة، ستلد للطاهر الأبناء ذكورًا وإناثًا، وسيُعوِّض ما لا يجده فيها في أَسِرَّة العاهرات، هي قانعة حامدة وهو يدبر العالَـمَيْن المتناقضَيْن بفرح وحكايات يحكيها للندامى ويفخر بها كفارس من زمن أسطوري...

عاد علوان الأقرع «بثمن» رقية، خمسمائة درهم، وبقرةٍ باعها في الحين للراعي الحفيان ولد الجاري، وديك رومي حمله معه، غَنِم وفرح ببَيْعِه فلذة كبده وتركها في بلدة لم تزرها أبدًا... وتركنا لعنةَ درب المخزن في هضبة الشقاء... باعها الكلب...

9 ◄

جاء الحاج السلامي كما توقعتُ يطلب دارَه بعد أسبوع رفقة الخياط علوان قال «أعطيكَ ما يعينك على كراء سنتين وتُفرغ لي الدار... هيه... ماذا تقول...»؟

يهز علوان الأقرع رأسه ويقول: «خذ منه يا ولدي... الدارُ ستقع، ولن تطال لا حمَّصًا ولا فولًا».

ما زال عطر الأقرع يسطع في الدار، دفنَّا ربيعة، وظلت الدار تسكنني بماضيها وأسرارها: «لو أدفن علوان الأقرع أيضا» أقول متظاهرًا بعدم الاكتراث: «اسمع يا سي السلامي... أريد أن أقطن شقةً بعمارتك الجديدة التي سميتها من فضل ربي..»، ذهل الرجل وفغرت عيناه وقال: «غالية عليك..»، قلتُ وأنا أبتسم بخبث وسخرية: «ستعطيني ما يغطي كراء سنتين... أليس كذلك...»؟

بعد أيام سكنتُ العمارة، وبعتُ الأثاث والفراش القديم، بل تخلصت منه، فاختفى عطر علوان الأقرع، ورائحة الدعارة التي ظلت تفوح من جدران الدار القديمة، ومن كل قطعة أثاث فيها، هذا ما ظننت...

نمت ليلتي الأولى... لم أر ربيعة في أحلامي، اختفت سوأة الرجل العاري، وطابور طالبي المتعة العابرة، هل لأني سكرتُ حتى الثمالة، أم لأنها لم تعد أمي؟

فجر جديد يتسلل من الشرفة باستحياء وتردُّد، يعلن عن زمن رحلة الشمس اليومية من مشرق في مخاضٍ إلى مغرب في احتضارٍ على مدينة الدار البيضاء المثقلة بقيء الليل الثمل، وشغب العتمة الغارقة في يمٍّ الخطيئة، وشهر نونبر خجول لكنه غادر... متقلب المزاج، لا يستقر على حال ولا يسمح بتوقع المآل، يغريك ببهلوانيات طيور السنونو ثم يفجع القلوب بريح حارَّة شرقية باغتة... خانقة للبهجة... أو زخات مطرية رعدية على غِرة.

ما زلت على الشرفة، أشم رائحة خشب الصنوبر آتية من الأبواب وإطارات النوافذ الجديدة، أتلمس خشبها الصقيل البني، أشتهي صدرًا شهيًّا... تنزلق في عقلي صورة الرجل المكنَّى بـ «الكوفار» الذي التصق بي التصاقًا شديدًا، ذاك الميكانيكي المتسخ... أكاد أشم رائحة الشحوم والزيوت كلما تأججَتْ غاباتي الداخلية، ويعصرني حد الاختناق مشهد ربيعة

وهي تفتش عن أثر جريمةٍ في دبري وبين فخذيَّ، فأختنق... وأغرق في الصور التي تمتص كل الهواء من رئتي، فأعود لأطفو على السطح، باحثًا عن هواءٍ حاضر نقيٍّ، يغلب على هواء الماضي السام، فتخفتُ في كل شهوة... وأتفادى بعقلي كل اشتعال ولو فكرةً عابرةً في خلدي.

الشرفة الجديدة أكثر حزنًا...

الفجر الجديد قديم مزيف...

أخيرًا نورس يحطُّ على الشرفة، يشعر بالغربة، ويحلق بعيدًا ويحط على سطح دار قديمة، يلحق به السرب، فتفرح الدار، وتكتئب الشرفة الجديدة...

لم تكن طفولتي سوداء ولا بيضاء... كانت طفولة مغايرة... لكنها طفولة بكل شغبها... بالمرسى اكتمل عنفواني وشغبي، وبأرصفتها تعلمتُ الطيران بالخيال... عشت مع الصيادين والبحارين والمتشردين، وأكلتُ ما يجود به الرصيف للأطفال والمتسولين...

لم ينعتني أحد مرة واحدة بولد العاهرة، غير أحد حراس الرصيف البحري، فانهال عليه الأطفال بالحجارة حتى ندم... وكان حين يطول غيابي تبحث ربيعة الشهبة عني في متاهات المرسى، يخدمها الكل، ويجري لجريها الجميع، وحين تجدني تشدني من شعري وهي تلهث... تنهرني وتتوعدني: «يا ابن الكلب... المرسى ليس فيها إلا أبناء الكلب والحمقى و...»

كانت اللعينة تخاف عليَّ من نزوات الكبار الموغلة في الكَبْت «الكَبِيتِ» وخوفها متجذر ولي سابقة في الأمر.

ففي ليلة من لياليها الحمراوات، تسلل عربيد وهو ميكانيكي يدعونه «الحوفار» إلى غرفتي، نظر إليَّ نظرات غريبة، أرهف السمع، نظر يمنة ويسرة، أغلق الباب بهدوء، اعتقد أن الكل في الغرفة الأخرى سكارى لا يعقلون، عُمي صُم لا يدركون ما يقع خارج الغرفة، أشار إلي بإصبعه أن أسكت وهو يقول: «سنلعب لعبة القط والفأر»، وقدم لي برتقالةً بعدما قشرها وهو يداعب شعري، لاعقًا شفته العليا بلسانه، تفرَّس في جسدي، ثم دنا مني وهو يبتسم، ربت على كتفي، تلمس ردفي لحظة وأنا أضحك من الدغدغة، وقبلني في فمي حتى تقززت وغلبني الغثيان من رائحة النبيذ، وكان أبخرَ أهتم، قال إنه يحبني وإنه عمي، وسيغمرني بالهدايا والعطايا حين ننتهي من اللعبة، لكن اشترط علي أن يظل الأمر سرًّا بيننا، وألا أفشي لأحد بلعبتنا، وإلا لعب مع غيري متظاهرًا بالانصراف حتى هززت رأسي موافقًا، نفحني خمسة دراهم، لم أعرف ماذا كان يريد بالضبط، لكنه بدا طيبًا مسالمًا، يريد اللعب معي فقط، قلت لنعلب... أمرني أن أتمدَّد على فراش من غطاء رث، تمددت كما أشار، نظرت بطرف عيني، رأيته يُنزل سرواله، وعيناه جاحظتان وقد رال فمه كالكلب لعابًا، فالتصق بي، حتى أوشك أن يخنقني، شعرت بركبتيه ترتعشان، وجسده يهتز، كنت أحسبها لعبة، وما أدركت طبيعة الأمر إلى حين وعيتُ وأدركتُ، وما إن هم بفعلته، حتى ولولَتْ أمي ولطمَتْ

وهي تلجُ الغرفةَ كالعاصفة، فانتفض العربيدُ الكلب مذعورًا على صراخ أمي: «الكلب... ماذا تفعل هنا مع إبراهيم...؟ يا فضيحتي... تعالينْ يا بنات تعاليْن تعالوا يا رجال... الأفعى «الحوفار» في بيتي وتريد لدع ابني ونشب أنيابها في لحمه الطري...» فأفلت من يديها هاربًا نحو الباب، لكنه كبا في المراح، أراد أن يلبس سرواله فمزقته البنات، وظل عاريًا تدور عيناه في رأسه، والكل مصدوم بذهول، فتهاوت عليه بعصا والأحذية، وهو يصرخ طالبًا الرحمة والمغفرة، أذكر أن ربيعة فتشت بدقة بين فخذي، وفحصت دبري فحصًا غريبًا، والفتيات يتابعنها بقلق وهن واجمات يكبحن الدموع في عيونهن، وحين حمدت الله تنفَّستِ البنات الصعداء، وأخذنني بالأحضان، وانهلن جميعًا على العربيد ضربًا وسحلًا، وما زال بكاؤه الأليم وأنينه الحاد ملتصقين بأذني، وقد قضى ليلتين بالدار يُجلَد على أخمص قدميه، ويُرَش بالماء ويُفرك ظهره بالملح، ويجلده كل زائر وهو مربوط إلى عمود، وربما فعلوا به «فعلًا شائنًا»... فقد كان كُلما ذُكِر اسمه قهقهت الفتيات... لم أره فيما بعدُ إلا طائفًا في كوابيسي... لهذا كانت ربيعة تخاف عليَّ من معاشرة الكبار والتسكُّع في المرسى.

هل كنتِ تعلمين يا ربيعة أنني بالمرسى كنت أضع قطيعةً مع زقاق درب المخزن، وأنسى الدار وليالي الدار والبنات المتبرجات والرجال الذين يمدونني كلما خرجوا بقطع نقدية، ورائحة الدعارة في الأجواء...؟

10 ◀

مدينتي القديمة الغارقة في الحلم الجديد وفي حسرة القديم، ضائعة بين مشاعر متناقضة، بين رافض لهذا التحول السريع في الخرائط، وتوسع دائرة الفقر والقهر، وبين متحمس لهذا العالم المتوحش الشرس الذي يغتال فرحة الأمس البسيطة، وأعراس الدروب الصاخبة، صراعٌ خفي غير معلَن بين عالم جديد مُغرٍ وعالم قديم ما زال له سحره، الجديد يمر كالقطار بسرعة وقسوة، يغوي بعض القلوب، ويستهوي بعض النفوس، فيزحف كالوحش الضاري يُعضده الجشع والمضاربات العقارية والأحلام المجهضة، فتقلصت المدينة القديمة أطرافها، وخربت وتآكلت دورها فصارت آيلةً للسقوط، تُخلِّف قتلى وضحايا من حين لآخر ولا سيما في الأيام الممطرة، وتخلَّى أكثرُ السكان الأصليين عن المكان وهُجِّروا... كما هُجِّر يهود الملاح ويهود الأزقة.

الحاج السلامي هو رجل المرحلة، يهدم كل قديم ويبني الجديد بلا هوية ولا طعم ولا روح، العالم الذي نودعه فاسحين الطريق للجديد، كان يجمعنا ويقربنا ويبدد فوارقنا، عالم الحاج السلامي، يبعدنا عن بعض، ويُفقدنا هويتَنا ودفءَ الجوار، وطعم الزقاق، وروائح الدرب، ودفء العيون، وضحكات السطوح، وأعراس الشرفات الحالمة والفجر والنوارس، عالم الحاج السلامي يُخلِّف عند كل هدم الحقدَ والضغينة في القلوب، لم نكن نشعر بالفوارق الاجتماعية إلا حين اختفى المعمار الأفقي الذي يُخفي الغنى والفقر وراء الحيطان، فقد تتشابه الدور من الخارج وتختلف من الداخل حسب المكانة واليسر، ارتفع بوحشية وكآبة المعمار عموديًّا فصار لعالمنا «الفوق» و«التحت» وطفق وباء العنف والمخدرات وقسوة الحياة وتفاقم الفوارق، يغير العلاقات ويغير قيم الجوار... والمدينة بسورها التاريخي الذي ما زالت مدافعه وقلاعه شاهدتين على عصر ذهبي، فقدت عذريتها وتلاحم أهلها وأُسَرها.

في العالم القديم الذي يرحل صاغرًا ذليلًا، كان الثريُّ فيها جزءًا منها ومن باقي أزقتها، لم يختر السكن بعيدًا في «فيلات» وعمارات راقية في أطراف الدار البيضاء، بل كان بين الناس يعيش ويتنفس ويربي أبناءه بلا غطرسة ولا تجبر، يفرح لفرحهم ويحزن لأحزانهم، كانوا ميسورين لكن لم يكونوا جشعين لصوصًا للمال العام وأغنياء المال الفاسد والممنوعات،

يمارسون عدة أنشطة... كان جلُّهم تجارًا أو مالكي مصانع صغيرة وورشات، وظلوا مرتبطين بالفلاحة والزراعة يمتلكون ضياعًا في بَوادٍ مختلفةٍ... لهذا ظلت أصولهم الريفية وارتباطهم القوي بالأرض والشجر يشذبان أرواحهم ويمنعان خُلقهم من درن المدينة ويغسلان ما علق بعقولهم من عفن الثروة... فظلوا كرماء... رحماء...

بيوت الأغنياء كانت زاويا مشرعة الأبواب، يحجُّ إليها المريض والمعدم، لا أحد ينقم منهم أو يحسدهم على النعمة التي كان للفقراء نصيب منها، أبناؤهم كانوا أصدقاءَنا وكانت الأعياد والمناسبات تجمعنا بلا تمييز ولا هرمية... المدينة القديمة... بدكاكينها وتجارها وأنشطتها... غادرها الأثرياء، فلم تعد إلا فضاء للفقر والقسوة والعنف... فتولدت النقمة في القلوب والغضب في النفوس من الأثرياء الذين بعدما كانوا جزءًا من الحياة، صارت لهم حياة خاصة في فضاءات خاصة محروسة، وأماكن للهو والمتعة لا يطؤها إلا الغني... وصار لأبنائهم مدارس خاصة، فانتصب السور عاليًا حاجزًا فاصلًا بين عالـمَيْن، ففصل بين الفئتين... وبموت طبيعة الأشياء في تعددها وتناغمها من خلال تعايش الغنى والفقر جنبًا إلى جنب تتشكَّل الهويات الصغرى، وتنشأ العداوات والأحقاد والضغائن محل المحبة والتآزر.

ها هو العالم الجديد يرسم لنا صور قِيَمه الجديدة... يقدم لي نفسه يوميًّا من شرفة مكتبي... بؤسا وقهرا وضجرا.

ما زال العالم الجديد يتدفق عليه بقيمه الجديدة... يهدُّ الحاج السلامي الحجر فيهدم معه الشجر ورقصة المطر وبهجة السطوح والسمر... وسكينة النفوس... تنطفئ المصابيح القديمة الباهتة، تشعل مصابيح قوية، فيزداد مع ذلك الظلام والخوف...

صرنا نخاف من بعضنا البعض... صرنا نعلن عن بعضنا البعض حربًا ضروسًا... صرنا ثلاث فرق... فرقة في السجون... فرقة مجنونة ضائعة بين الدروب... فرقة تنتحر انتظارًا بلا أمل... تؤجل اليأس بالمخدرات والخمور...

لم نعد إخوة في الحي، نصير أعداء لمجرد كلمة أو سوء تفاهم، لم تعد بنت الدرب في حماية شباب الدرب، صاروا هم ذئابَ الدرب... الكل جائع ومتذمِّر، الكل متربِّص ومتوجِّس، الكل مستعدٌّ للشجار والاستنفار... بدأ الغسيل يختفي من السطوح، كان بالأمس لصوص من أحياء أخرى تضرب عليهم الحراسة حتى يسقطوا... صار اللصوص الآن بيننا بل من دارنا... الإدمان والمغريات، يخربانا من الخارج والداخل... وحدنا في الأحياء نتقاتل... نقتل بعضنا البعض وهم يتفرجون... تخدمهم هذه الإبادة الجماعية في الأحياء لبعضنا البعض، هم محايدون... لن يطلقوا رصاصة، لكنهم أطلقوا الأقراص المهلوسة، والسواطير والسكاكين... في عالم الحاج السلامي... نقتل بعضنا البعض...

العالم الجديد الذي حط الرحال فأتى بالحاج السلامي وأمثاله هو نفسه الذي بدأ صناعة التفاهة والجهل والتطرف... عالم كلما تقدم على أنقاض الماضي، خرب النفوس، وبصم الأرواح بالحقد الدفين، ووسع الفجوات والهوات، وبدد لحمة التآزر والمحبة التي لا يغيرها عمران ولا جاه ولا مال.

كم قضيت بالشقة الجديدة...؟ لا أدري... اعتزلتُ العالم العلني، وصخب الشوارع والتصايح في المحاكم، وضوضاء الحانات، أدبِّر حياتي وأحسم قرار البحث عن أصلي... وأخفف تناقضاتي، فالعزلة كانت دائمًا عندي ترفًا، أرمم فيها الصدوع والشروخ، وأختفي قليلًا، حتى تتبدد توجساتي ومخاوفي... فقد يسيطر عليَّ خوف مبهم لا أصل له ولا مبعث له في الواقع، غير تلك الرعشة في صدري والتي تغدو كزِرٍّ جرس إنذار سيقع، فيجرني الهوس إلى عالم عاتم مظلم، لا أغادره إلا بعد تخلصي من أرقي وهوسي...

العزلة أحيانًا متعة غريبة، ترف من نوع آخر... ليس كل عزلة سجنًا أو حصارًا نفسيًّا... العزلة أحيانًا جنة لا يتنعم ويتقلب في نعيمها غير المنعزل...

لم أخرج منذ أسابيع... حتى الطعام يأتي به معلبًا حارس العمارة... بدأت قنينات الويسكي تنفد من البراد، البراد فارغ إلا من قطع الثلج والماء، الجو بارد، لم تبقَ إلا أيام ليحتفل العالم بالسنة الجديدة، أعيش بشكل عادي أواخر سنة 2012، لم يبقَ إلا يومان على 21 من دجنبر، سال مداد كثير حول

هذا اليوم، كثير من المتشائمين يترقبون نهاية العالم، لا أعرف من أين أتوا بهذه التوقعات، أما أنا فكلما قرأت التحاليل في الأخبار والجرائد والمجلات وربطها الأمر بتقويم زمني لحضارة «المايا»، ضحكت ملء فمي، فلا أحد يعلم يوم الساعة... عقيدتي حصنتني من هذا الهلع الكوني، أتذكر قول ربي: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾... طبعًا... أنا سكير... لا أصلي... لكن أصوم... وأؤمن بكل تفاصيل القرآن الكريم، أنا هكذا... متناقض... لكني مرتاح لمصيري، الحكم لله يوم الحساب وهذا يكفيني، فلو كان بيد البشر يومئذٍ لخفت وترددت، لكن عدالته دقيقة...

ربيعة ماتت وهي تطمع في رحمةٍ... ماتت وهي تنتظر شفاعة النبي... ماتت وهي تُعوِّل على صلواتها في كِبَرها، بفروضها ونوافلها، بل ماتت وهي تُعوِّل على حجتها لمكة، في عقيدتها الحج مسح كل ذنوبها، وعادت كما ولدتها أمها... لكن أنا سأظل الجرم المستعصي على آلاف الحجات يا ربيعة... لم أغفر لك بعد...

قالت حين عادت من الحج وهي تذرف الدمع الساخن: «يا بني... لو زرت مقام النبي، لنسيت الدنيا وما فيها... لم أطلب شيئًا سوى مغفرة من ربي» يومها عانقتُها... وهمستُ في أذنها: «الحج يجبُّ ما سبقه» لم أكن أعلم أنني جزء من وزها المحتمَل جَبُّه... واليوم... أرفض أن أصفح عنها... أرفض أن ترقد في سلام في تلك الحفرة بأرض الهضبة الحمراء... أرفض... أرفض...

أحدهم يعبث بي حدَّ الجنون، يضغط على زر جرس شقتي بإلحاح دون توقف، حل الليل... مَن يريدني في هذه الساعة؟ لي كأسي وأسراري وماضٍ أدفنه على مهل، ومستقبل أدبِّره بصمت، أفكر في رحلة البحث عن أصلي، وأتردد... النبيذ يخيفني أحيانًا وأحيانًا أخرى يحفزني على المغامرة...

ألم تقل ربيعة أنه لا يأتي بعد غروب الشمس إلا البلاء والشقاء...؟ لِـمَ أستحضرها وأستشهد بكلامها في مواقف شتى؟ هذا ما خفت منه... لم أدفنها بعد...

فتحت أخيرا... على باب شقتي وجودٌ بهي ساحر فاتن يهد كل حكمة، ويبعثر الكلمات في الألسن... أنثى... الأنثى... الانهيار الذي نختاره طوعًا، الموت كقرابين الذي نحني له رقابنا، الفوضى التي تحيِّر خرائطَنا، ونمنحها سرَّ ضعفنا... النار التي تغرينا بالدف والضوء ونحلق حولها كالفراش، لننعم بالاحتراق والاختراق...

أغوتني الزائرة توًّا وأنا لم أستعدَّ بعدُ... الصمود أمام اجتياح أنثوي صارخ أسطورة، سأسقط لكن بشرف... سَوِّوَلي مواقفي وأفكاري لتلائم هذه اللحظة المربكة... حضور أنثوي متعدد الأبعاد... جسدًا... شعرًا... لكنةً... حركةً... ابتسامةً... تنحني له الجبال والشموس والغابات...

كشفٌ بهيٌّ يستحق تأجيلًا لكل المعارك، وأصلًا ليست لي أنا أي معركة، غير المضي قدمًا، وهذه فرصتي لأختفي من

خرائطي المملة القديمة... لأرمم لوائي المنكسر... لأدفن بقايا ربيعة... لأتخلص من صورة الميكانيكي تحت جلدي وعطر علي الخياط في خيالي... وصخب الماضي القاتل في حاضري الحائر.

ربما أخطأَتْ في العنوان... ربما أخطأ القدر... القدر لا يخطئ

هناك سرٌّ ما... منذ تلك الليلة غدوتُ لا أعرف، هل أخطأَتْ في العنوان، أم جاء القدر ليخدمني بنفسه...؟

مَن تكون... هذه...؟

هي امرأة وكفى... يقول جلال دائما: «إن المرأة تختصر الكون»، الداهية من أين أتى بهذا الوصف...؟ أصدقك الآن... هذه الطارقة بابي ليلًا تلغي ما حولها، سأصفها... لا... لا أجد العبارات ولا الكلمات، ستَظلِمها اللغة... سيبخسُها حقَّها المجازُ وكلُّ استعارة مغرورة، كل كنايات العرب عن الجمال صارت منتهية الصلاحية... إنها باختصار سر من أسرار الكون الكامن في الأنوثة...

هل توصف المرأة بالكلمات...؟

سأكتفي بالقول إنها... إنها... مثيرة... هذا غير كافٍ، سأقول إنها ريح عاتية بإمكانها أن تهد أصنام الحكمة بنظرةٍ من رمشها، بإمكانها أن تُسقط الملائكة بإيقاع كعبي حذائها، بإمكانها أن تحصل من زعيم على أسرار خطيرة، بإمكانها أن تُسقِط عروشًا،

وتُغيِّر أنظمة... كانت كاملة مكتملة، كقصيدة من الصعب أن تُكتَب بعدها أجمل منها...

قال بغنج وتهتك:

ـ أستاذ إبراهيم...

ـ نعم... سيدتي...

ـ آنسة من فضلك...

لو كانت ربيعة على قيد الحياة وسمعتكِ تتحدثين بغنج لقالت لكِ: «اسكتي يا عاهرة». لو رأتك تميدين وتلوين خصرك لَنَهَرتكِ وجرَّتكِ من شعرك وصرخت: «يا عاهرة... دعي رجليك تمس الأرض... ما بكِ...؟ هل بكِ جرب...؟ يا خرقاء...».

مضى زمن ربيعة... دفنتها في الهضبة الحمراء... هل دفنتها فعلا...؟ لِـمَ أستحضرها الساعة...؟ أنا... أقول لكِ يا امرأة... أيها العابرة في حرقة الحاضر: «كوني كما أنتِ... استعملي جميع أسلحتكِ... أنا هنا... في انتظار من ينسيني الرجل الذي اهتزَّ فوقي وأنا صبي، كنت أحسبه يلعب معي...».

تهالكت على أريكة، تخلصت من منديل شعرها، قالت وهي تسرح بنظرها في السقف: «أنا عتيقة... جئت أبحث عن لالة ربيعة... لم أجد الدار... هدمت على ما يبدو... ليس هناك غير الردم... سألتُ... قال لي الساكت حارس العمارة، إن ابنها يسكن بالشقة رقم 12 في الطابق الثاني... وصعدت... أرجو ألا أكون متطفلة أو مزعجة...».

تبًّا لك أيها الكلب ابن الكلب... يا حارس العمارة... أنا أدفن الماضي وأنت تعري عنه خبرًا أو معلومةً... وهذه الجميلة، ماذا تريد من ربيعة؟ هل هي عاهرة جاءت بتوصية ولم تكن تعلم أن الدار نشاطها كسد... والمرأة تابت ثم ماتت...؟ أتكون هي كلبة أيضا مثل كل الكلبات...؟

ـ سامحيني «ربيعة»... ماتت...

ـ أتقصد أمك ربيعة؟

ـ تلك قصة أخرى...

ـ تقبَّل عزائي لم أكن أعلم...

ـ لا بأس... ماذا تريدين منها...؟

ـ تلك قصة أخرى...

سأصمت... إذًا... كلانا له قصة مؤجلة... هذه الجميلة وراءها حكاية أو مصيبة... أنتفض واقفًا، أتجه صوب الشرفة، أشعل سيجارة، أتفرَّس في وجهها وهي تسوي فستانها الضيق... أنتظر بصمتٍ، أراقبها فقط، تشعل سيجارة هي أيضا، تقف... تذرع الشقة جيئةً وذهابًا، أشعر بنظراتها القلقة، تتأوَّه، تُصدر تنهدات... تلحق بي بالشرفة، تنفث الدخان بعيدًا، وتقول بحسرة وأسى: «ربما سري مات مع أمك...».

أي سر تقصد هذه الغريبة؟ هل احترازي كان في محله؟ لا أدري... تعلمت في دار ربيعة، أن كل النساء أفاعٍ وحرابي،

توجسي هو قلعتي وفيلقي الأول في خطة الدفاع، أغيِّر مكاني... أجلس على مقعد، تجلس قربي... تضيق المسافة بيني، تفصل بيننا طاولة رخامية دائرية صغيرة، برودة الغرفة، تثيرها... تفرك ساعديها بيديها، ثم تسرح بنظرها في السقف، وتقول:

ـ أليس لك سخان أو مكيف؟

ـ سكنتُ مؤخرًا... لم أفكر فيه بعدُ...

ـ البرد هنا قاس...

ـ عادي... فنحن جيران المرسى والبحر... ألفنا الرطوبة والرياح الباردة... هذه حياتنا... أقصى ما كنا نفعل نشعل الفحم ونتحلق حوله...

ـ ذاك زمن مضى... والعالم حولنا يتغير...

ـ صدقتِ... ومضت معه كل بساطة في الحياة...

ـ سأرحل إذًا لم تعد لي من ضرورة للبقاء... ماتت مَن جئت مِن أجلها...

ـ ربما تجدين الأجوبة عندي...

ـ لا أعتقد...

من يدري؟

تضع سيجارة أخرى بين شفتيها، تفتش في حقيبتها عن الولاعة، أسرع نحوها لأشعل لها السيجارة... يغمرني عطر

خالب، أنساني عطر علي الخياط، وأرى صدرًا طريًّا، يهتز على ضفتيه نهدان حائران متطلعان، أكاد ألمسهما بأصابعي، أتذكر الميكانيكي وأمي وهي تفتش عن أثر جريمة في دبري، أنطفئ كشمعة في مهب الريح، وأنكسر كغصن ضعيف على شجرة على ربوة غمرتها رياح الخريف.

تقترب من الشرفة، تردَّدتْ في خطوها، تكنس زقاق درب المخزن، تسوي خصلتها الطائشة من جديد، تجلس كاشفةً عن كعبها، وساقها الممتلئة والدقيقة عند الكعب، وفي غنج سافر، تقول:

ـ سي إبراهيم... لا أظن أنك تملك كل أسرار أمك...

ـ من يدري...؟

ـ علي أن أرحل الآن... سأعود... ربما...

كما دخلَتْ بسلاسةٍ خرجت، لم تسمح لي أن أوصلها إلى باب العمارة... نظرَتْ إليَّ نظرة غريبة وهي تلوح لي على السلم، وقالت: «ربما... نشترك أنا وأنت في عدة أشياء... سأعود حتمًا... سأعود...»

من الشرفة... تعقَّبتُها حتى ركبت سيارة أجرة بمساعدة الحارس الساكت، الذي ظل يحييها حتى اختفت السيارة.

11 ◀

حانة «كوخي ma chaumière»، تصحو ـ كما قال أحد الشعراء أعرفه هنا ـ في العقول مبكرًا قبل أن تصحو المدينة، سأدفن مع جلال سنة 2012 هنا بين الحالمين والهائمين في زحام الزمن الجديد، سنحتفل على طريقته، سنسكر حتى الفجر، ونصرخ عند منتصف الليل مرددين نشيد الموتى، في جنازة سنة من عمرنا، بل من عمر كوكبنا، نجاة الساقية البضة القصية الصهباء، تسقينا على المشرب، الليلة تبرجت أكثر، وكشفت مفاتن كثيرة، سروالها الضيق يكشف أكثر مما يخفي، تشرئبُّ بعنقها من حين لآخر متعمدة من المقصف، لتتطلع العيون إلى نهديها، وتشعل الغابات حريقًا، وتخرج الذئاب من أوجارها، ماكرة في الإثارة، يطلب لها أحدهم جعة، تعتذر الليلة لا تشرب غير الويسكي من النوع الجيد، تظل الكؤوس تأتيها من كل صوب وحدب، يسكر الكل وهي لا تسكر، فقط

لأنها تملأ كؤوسها بالماء وكوكاكولا، وتضع ثمنها في حقيبتها، نحن مرتادي المشرب نعرف مكرها، لهذا حين نطلب كأسًا تأتي به وتسكبه أمامنا وتجود، جلال يلقي قصيدةً في المرأة، أتذكر زوجته الوحيدة في فيلاته الباردة، والحارس العجوز ونباح الكلب الشرس، جلال يرفع الأنخاب لنادية، لا أحد رفع الأنخاب الليلة لزوجته الآتية من البادية... هنا في هذا الفضاء يفرغ جلال أسرار شخصيته الأخرى، حداثي... تقدمي... مثقف... يفهم في كل شيء... حتى في الرياضة...

هل أحكي... أكشف لجلال سري؟ سأنتظر حتى تفتي الكأس علي فتواها...

يا جلال... أتعلم أن ربيعة ليست أمي... ربيعة اختطفتني من عين بأرض الغريب... من أم ربما ما زالت تبكيني لحد الساعة... يا جلال... هذا يقين... وليس تخمين... يا جلال... ربيعة سرقت براءتي وحياتي...

بعد منتصف الليل جرني إلى طاولة في ركن مظلم، وأمر أن تخفت الموسيقى، نعم... جلال هنا يأمر، أمر بقنينة ويسكي، أشعل سجائر متتابعة، وصمت... أردت أن أتكلم... فأشار عليَّ أن أنتظر... كان يتأمل في سكير يسب ويشتم الجميع، بعد لحظات رمته السواعد القوية إلى الخارج، وعاتب صاحب الحانة الحارس على السماح لأمثاله بالدخول، تغادر نادية المشرب، تدنو منا وتهمس لنا: «هذا هو «قدور» من

زناتة، الرجل باع أرضًا تساوي الملايين، بدرها هنا وهناك، كانت سارة هي خليلته، تنعمت معه وعاشت أجمل الأيام... لكنه صرف كل ما لديه... لم يعد يصلح لأي شيء..». ثم انصرفت... تهتز عجيزتها ويتلوى خصرها متهتكة بمجون... ينظر في عيني جلال بقوة ويقول وهو يلوي شفتيه: «انظر هناك... في الزاوية الأخرى، حيث المائدة تكاد تفيض بالجعة والأطعمة وعلب السجائر، انظر مَن تجلس مع ذاك الكهل، إنها سارة... صائدة الوارثين وأغنياء الصدفة... قمار أو ورث... إنها تستنزفه... تعصر دمه إلى آخر نقطة... تُشعِره أنه هو الحبيب والسلطان... تبكي لغيابه بلا دموع... انظر إليه... إنه الضحية الآتية... قريبًا لن تقبله حانة... الليلة هو مكرم ومحترم والكل في خدمته، لأن كرمه لا محدود وهداياه بلا عدد... المهم... هذا هو العالم الجديد... هؤلاء هن مصاصات الدم اللواتي يخرجن ليلًا بحثًا عن اللحم الطري».

في خاطري أقول: «الضحايا هم أيضًا جلادون... هم أيضًا تركوا في البيوت ضحاياهم يقبعون في صقيع الوحدة، يجلدوهن بالإهمال والقهر، ربما رقية تصنع التوازن في منظومة القهر».

ربيعة كانت أقلَّ شرًّا لولا خدماتها السرية لرجال الفجر، لولا جريمة الخطف... ربيعة لا تخرب البيوت، ولا تشتت الأسر، ربيعة كانت تؤنب المهمل أسرته، وتلفظه دارها خارجًا إن كان مقصرًا في الرعاية والنفقة، ومن تناقضات حياتها، أن

النسوة كن يأتين إليها شاكيات ظلم الأزواج وتقصيرهم، وويل لمن وصل خبره ربيعة، قد يختفي من داره، أو لا يظهر في الزقاق حتى ترضى عنه الزوجة، فتطلب رحمة ربيعة وعفوها، ربيعة كانت تُذكِّر الرجال بأسرهم وبمسؤولياتهم، ربيعة كانت تمنح المتعة والنصيحة وترمم ما خرب من بيوت زبائنها، دار ربيعة كانت تأخذ ما يكفيها للعيش وأجرة البنات ولا تزيد، لهذا لم تشترِ لا دارًا ولا عقارًا... زمن الحاج السلامي زمن آخر يا جلال... خليلات الأمس كنَّ جزءًا من حياة الأسر، لا يخربن بيوتًا وقد يدعمن الرجال في زمن الشدائد...

لم نكن في دار ربيعة نحتفل برأس السنة ولا بأعياد ميلادنا، ربما كلهم يشتركون في شهر واحد للميلاد وضعته لهم السلطات، لأنهم لا يوثقون لا الزواج ولا الميلاد... في دار ربيعة، عاشوراء هي عاشوراء، كل المومسات يخضبن أقدامهن وأياديهن بالحناء، وتملأ الأجواء رائحة البخور والند، تذبح البقرة على العتبة، يحيي الليلة «كناوة» أو «حمادشة»، تتخلص البنات وسط إيقاع الطبل القوي والمزامير والصنوج، مما راكمنَ من هموم وأحزان متوارية في النفس، فيُصرعن من شدة الوجد والتأثر بالإيقاعات الموسيقية الصاخبة، واستحضار المرددين والمرددات بحماس وسحر ما يزعمون الجن والخدام من العالم الروحي بأسمائهم وسلاطينهم وأميراتهم.

جلال لم يعش معي هذه الأجواء من السحر والخفاء، وها هو يسحبني نحو عالمه الجديد، عالم دفن السنة المحتضرة

بالصخب والمجون، بالوهم والكؤوس، تحدجني نادية بنظرة زائغة، أراها تتعقبني كلما دلفت إلى دورة المياه، واستقبلتني تلك العجوز المنظمة بجفاء، جفاء أفسره عدم تحيتي لها، ربما تشعر باستصغاري لها، أريدها أن تشعر أنها وضيعة خسيسة، فهي تذكرني بربيعة أيام الوساطة، بعض الزبائن تنقصهم الجرأة، تكلمهم في المرحاض، تتوسط لهم، ما إن يعودوا إلى طاولاتهم حتى تأتيهم فتاة متهتكة بمجون وتجلس... لمَ تتعقبني نادية بنظرات زائغة...؟

بعض الساقيات يهمن حبًّا في الغجر من السكارى، في «البوهيميين»، في المهمشين... أتراني نادية واحدًا منهم...؟ ربما أطلقت لحيتي كثيرًا، وهي غير مرتبة وفوضوية، وأهملت شعري حتى غطى حلمتي أذني، ربما ملابسي الفوضوية تعطيها انطباعًا أنني مختلف... يا نادية. لوائي منكسر، وفي خيالات جدران تحول دون الفتح الشهي، كلما مددت يدي لثمرة من ثمار الحدائق الخفية، علا موج وجرني بعيدًا، انتصب جدار الميكانيكي الذي رائحته تسكن جلدي، وأكاد أشعر بأصابع أمي تفتش عن جريمة بين فخذيَّ... يا نادية... فأنا فوضى... عاهر الماضي، متلعثم الغد، لا أجيد العشق إلا داخل اللغة، يأسرني النهد في ربوع الشعر، فأحتفي به هناك، ولا أتجاوز عتبات المجاز... مواقفي مبهمة كحياتي، أنا فوضى، شقتي باردة، في زواياها يسكن الضجر، وفي كل ركن قنينة فارغة أو عقب سيجارة، أنا عفن... لا أليق للحب ولا للعشق...

ـ اسمع يا إبراهيم... ما قالته تلك العجوز... يجعلك أمام خيارين...

ـ ما هما؟

ـ إما أن تنسى كلامها وتمضي في حياتك بسلام... أو تفتح بوابة كبيرة لا تعرف أين ستؤدي بك... النعيم أم الجحيم... لا شيء مضمون... فكر...

وأنت ماذا تقترح؟

يصمت طويلًا، يشعل سيجاره الكوبي، ينهض للمرحاض الذي ظل بابه مواربا، أرى ابتسامة المنظفة العجوز وهو أمام المرآة يسوي ياقته، ويضبط حزامه... ثم يعود متهالكًا ويجلس مرددًا:

رأيي... أن تحسب الأمر بالربح والخسارة.

لم أفهم...

الآن هل خسرت شيئا...؟

لا...

وغدا لو تعرفت على أهلك... قد تخسر أو تربح

لم أفهم...

ماذا لو كانوا فقراء معدمين؟ ستحمل قفتهم إلى الأبد... ماذا لو وجدت أبًا عليلًا يكح دمًا، وأما مريضة لا تكف عن الشكوى، وإخوة جهلة في أرض لم تمنحهم غير البؤس

والجوع...؟ سيحاصرك الفقر من كل ناحية...

سأربح أصلي

الأصل أسطورة يا صاحبي... الأصل هو اللحظة... الآن... الـ «هنا»..

وماذا لو كانت أسرتي غنية...؟

أحمق أنت... لو كانت ميسورة لجندت كل الإمكانيات لمعرفة مكانك...

يقهقه وهو يضرب الأرض بحذائه مردداً:

ربما في دواخلهم ارتاحوا منكَ... خصوصًا إن كانت الأفواه كثيرة...

ماذا تقول...؟ ما سمعتُ أمًّا تتخلى عن فلذة كبدها فقرًا

أما أنا فرأيت من يبيعون الأبناء مقابل الخبز... أنت انعزلتَ حتى توحشت، ولم تعد تعرف ما يجري في الدنيا... فكر قبل أن تُقدِم على أي خطوة...

ينهض نحو المشرب، يضع كأسه، يناجي نادية متكئًا على مرفقيه على المشرب وهي تنظر إليَّ مبتسمة « أيحدثها عني..»؟ تغادر المشرب، تتقدم نحوي متهالكة، وتهمس في أذني: «صاحبك يهتم لك، يريدني أن أختار لك بنتًا... ما رأيك... قلت في خاطري... لمَ لا أعرض عليك نفسي... إيه ما رأيك... ليلة مجانية... على حسابي...».

لم أرد عليها... تمغَّنتَ في طويلًا وهي تعذب العلك بين شفتيها، وانصرفت متأففة تاركة لي قهقهة ونظرة زائغة...

حينما رددوا تراتيل جنازة السنة وهم يوارونها التراب سُكرًا وصخبًا، كنت أجرُّ ظلي بين الدروب نحو شقتي، وحديث جلال يضجُّ في عقلي وخيالي.

ما إن أدرت المفتاح في القفل حتى ظهرت أمامي عتيقة، أُصبت بالذعر فدق قلبي قويًّا خوفًا بينما هي تضحك ببراءة... دخلتُ فسبقَتْني وهي تضحك واضعةً أصابعها على فمها... تمدَّدَتْ على الأريكة، أشعلَتْ سيجارةً وقالت: «لو تأخرتَ قليلًا كنتُ سألحق بك إلى حانة ««كوخي ma chaumière».

لا أحد يعرف الحانة التي أتردد عليها غير الحارس الساكت، الكلب مرة ثانية عراني وكشف سرًّا من أسراري... فكرتُ أن أنزل إليه وألكمه، لكن لي منافع شتى عنده، ربما لسانه طويل، لكنه خدوم مطيع...

ـ مرحبا بك...

لم ترد عليَّ رمت حقيبتها بعيدًا، وقالت وهي تسوي شعرها بيدها: «يبدو أنك شربتَ الليلة كثيرًا...».

ـ هل أسقيك كأسًا...؟

ـ لا... عذرًا لا أشرب...

يزحف نحوي شبح جلال، يحلحل الصمت الكامن في

دواخلي، أسمعه يردد بابتسامة ساخرة: «هذه فرصتك... لا تضعف» يا جلال أنت لا تعلم أن مركبي لا يثق ربانه بالشراع، أنت لا تعلم أن ريحًا مُعاكِسة لركبي تحطمه قبل الإبحار، ريح تعصف من جهة الماضي، تحمل عطر علي الخياط، رائحة الميكانيكي، صخب الليالي الكئيبة...

أتفرس في الجسد الذي بدأ يشعلني، أدخل في تفاصيله، أحدد نقط القوة، كان طافحًا بالشهوة، لكن بلا لوعة ولا كبريت، تشيح بوجهها عني، كأنها اكتشفَتْ رعشتي الحائرة، أتلهَّى عنها وأشعل التلفاز، كالهدير تنطلق موسيقا صاخبة تكسر الصمت الذي خيم على الشقة، تنتصب واقفة، ترقص كطفلة صغيرة رقصًا فوضويًّا، تحل شعرها، تهز رأسها هزات، الشعر الليلي كشلال ماء صاخب، أهرب منها نحو الشرفة، لألتقط أنفاسي، تتبعني تسحبني، تراقصني، أراقصها... ريحها أقوى من ريح طفولتي، يكاد المركب يستوي على شاطئ صدرها، يتردد عقلي، تحكم السيطرة على هواجسي بيدين تجيدان عجين الغواية، أنهار... أسقط... أبحر... أغرس لوائي في أعلى التل، ثم أتمدد بين قتلى الماضي بشرف...

نسيم الغبش البارد يهب على الشقة، تتراقص لهبوبه الستائر فتنشر ظلالًا باهتة على الجدران، زقزقة الطيور وهي تهم بمغادرة وكناتها تملأ الأجواء، طفق الضوء يتدفق إلى الشقة... ما زالت على صدري، أيها العالم... اليوم دفنت ربيعة، اليوم لا عطر غير عطر عتيقة...

غفوت ساعة أو أكثر بقليل، وحينما صحوت لم أجدها على السرير، تفقدت كل الأرجاء، تتبعتُ خيط عطرها، حتى وصلت للباب، رحلت دون وداع ولم تترك في قلبي غير حسرة على رحيل مبهم، كحضورها الغريب، تركت فقط بقية من روحها في الأرجاء، عطرها الجميل، ومنديل شعرها... هل تعود يوما؟ تلك أسئلة حارقة تناسلت في خاطري وأنا أشم المنديل، وبقايا عبورها على بقعة في الشقة... هل أحببتها؟

يقول جلال: «الحب... أسطورة يا صاحبي... الألفة تصنع بنا ما تصنع فنسمي وجع الفطام عشقًا، لم يمت رضيع يومًا من فطام... ستبكي... ستتألم ثم تنسى..».

لا يا جلال... فلتخرج من رأسي، أخطأتَ التصويب مرة ثانية، عن أي ألفة تتحدث... ما عرفتها غير ساعات... فتعلقت بها... فينهض طيف جلال من جديد مقهقها: «يا أحمق ألفتَ تُفاح حدائقها... أكلت من الشجرة المحرمة... ستطرد من جنة الخلد... ستنزل لأرض الشقاء والموت والألم..». وأخيرًا صدقتَ يا صاحبي، لقد ارتفع لوائي، وصمد أمام ريح الطفولة المضطربة، عبقها تلاشت له كل الروائح القاهرة لفروسيتي، أصابعها استخرجت من تحت جلدي رائحة الميكانيكي، وأحرقت أثر أصابع ربيعة وهي تفتش عن صك إعدام «الحوفار»... أنفاسها غسلتني من الداخلي وعمدتني بضياء بدد كل الظلمات والعتمات المتوارية في الروح والمناطق الخلفية للوعي...

لستُ مجنونًا حين أستحضر جلالًا في كل مناجاة، ولست ضعيفًا يسيطر بظلاله على كل فكري، فقط أنا في حاجة إلى الآخر... هذا الآخر لا أجده أحيانًا إلا في خاطرٍ عابرٍ، أو صوتٍ حائرٍ، أو ذكرى طرية تلهمني الكلام... والعبور لغةٌ من الحيرة إلى اليقين...

رحلْتِ... يا عتيقةُ... كما حللتِ عاصفةً مدمرةً في البداية، رحلتِ وقد تركتِ وراءك عالمين، أحدهما غدا أنقاضًا... وهو عالم خوفي وترددي، والآخر نهض من جوهر روحك ينضح بالأمل والرجاء...

أحبكِ... يا عتيقة... أتألم لغيابك... ليس الأمر فطامًا يا جلال... وليس الأمر نزوة اشتعلت في غاباتي الموحشة فعاثت فسادًا في أساطيري مخلفة فوضى العقل، فلا يطفئها غير كبريت عتيقة... أحبك يا عتيقة... يليق بي البكاء الآن والنوارس تحدق باستغراب... يليق بي الآن أن أختفي أيامًا ثم أعود بمستقبلي متأبطًا بالأمل وطيفك وعبقك وابتسامتك...

ليس فطامًا ولا ألفة يا جلال... إنه الحب... أشعر من الآن أنني مستعد للأرق... مستعد للهيام على وجهي في شوارع الدار البيضاء علني ألتقيها في مكانٍ ما... إن لم أجدها سأدفأ بذكراها في خريف العواطف، سأسامر طيفها في ليالي الشتاء الطويلة الباردة، سأستدعيها مجازًا في كل قصيدة لأغفو تحت رمشها.

12 ◀

جلال يريدني مثله، نسخةً منه لكن أقلَّ جودةً، أراوغ الحقيقة بالخمر والسهر، وأناضل باللغة وخارج اللغة، أغدو حقيرًا متخلفًا، جحودًا عاقًّا، نكودًا معقدًا، تأكلني من الداخل عُقدي الكثيرة، فأبني حولي جدارًا عاليًا، أنظر إلى العالم الخارجي فقط من ثقب على الجدار، لا أحد يهرب غير الجبان، ولست جبانًا... سأشد الرحال إلى عين ببلدة الغريب، وهناك سأحدد مصيرًا جديدًا، قد أطوي الصفحة كاملة إلا سطر عتيقة البهية... آه... عتيقة... هرب مني الشعر... لم أعد أجيد نسيج البهاء، وأنت مشاغبة على عتبة كل قصيدة... يومًا ما سأنشر ديواني الأول يا جلال... لست انتهازيًّا... لا أريد منصبًا أقتات منه باسم الثقافة، ولا فضلًا غير فضل الشعر عليَّ، ألم يكن صاحبي في غربتي ووجعي؟ سأنتظر حتى تكتمل قصيدة عتيقة... لتكون هي الاستهلال والخيال والسفر والمآل...

ربما عليَّ أن أدفن جلال نفسَه... ربما هو جزء من الماضي... بل جزء من مستقبل مزيف، وحاضر عفن... هو لا يمثلنا يا عالم... هو يمثل البعد المثقف لأمثال الحاج السلامي... كلاهما وجهان لعملة واحدة...

حزمت أمتعتي، تركت جلالًا خيطَ دخانٍ يتلاشى مع الوقت، حملت معي ابتسامة عتيقة، وقصائد مبعثرة في العقل... وانطلقت...

السيارة المتهالكة تمخر بحر الظلام، أخرج مع الغبش من الدار البيضاء وألج مركز أرض الغريب في العتمة الظلماء، مقهى معزول يضمُّ بضع ظلال بعيون قلقة غارقة في البؤس، ظلال هنا وهناك تتقاطع فتختلط الأشياء بالأحياء، تربص في النظرات بكل غريب، عقول لا تجيد غير النظر في الوجوه ولعب النرد في لعبة من يخسر فيها، تُصنع له أذنا حمار، لصوص الأسواق لا بد أنهم في مكان ما ينتظرون الكشف عن هذا الغريب قبل المغامرة، فليس كل الناس تُسرَق هنا، أجرُّ ظلي نحو المقهى، أسأل عن عينٍ بأرض الغريب، يترددون في الجواب، في عمق المقهى، يجلس شيخ وقد ألصق مذياعًا صغيرًا بأذنه، يبعده، ينظر إليهم، يهز رأسه، ثم ينتصب أحدهم واقفًا وهو يقول: «أنت في أرض الغريب... وهي واسعة ممتدة الأرجاء، تحدها غربًا منطقة عبدة وشرقا أراضي دكالة، وإن أردت الذهاب إلى عين الراعي فهي بعيدة، والطريق إليها غير معبَّدة، يلزمك سيارة..».

ينادي على أحدهم، يهمس في أذنه، ثم يقول لي: «هذا عروب، يعرف الأرض هنا كما يعرف أبناءه، سيأخذك بسيارته... لكن لا بد أن تكون معه كريمًا».

يشعل عروب سيجارة تبغ أسود ويقول وهو يحك قفاه: «أريد مائة درهم... وعشرين درهمًا للحاج جلول..».

نظرت إليهما معًا وقلت برباطة جأش: «من جلول هذا..»؟ ردَّ الرجل الذي أتى بالسائق: «هو ذاك الشيخ صاحب المذياع..». تتقاطع نظراتنا ألوح له، يهز فقط الحاج جلول رأسه، قبل أن نختفي عن أعينهم، خطا نحونا الحاج جلول وقال وهو يسعل: «اسمع يا عروب... الرجل في حمايتي... أوصله حيث شاء... ولا تكن كلبًا وإلا قطعت ذيلك..».

يا ربيعة، أشباه هؤلاء كلهم زاروا دارِكِ، وكانوا ينفضون عنهم من حين لآخر بؤس البادية، وعبوس العزلة، يكفيهم سنة ممطرة، لزحفوا جماعات نحو البيضاء باحثين عن المتعة والترفيه في دُور الدعارة والحانات المنتشرة، يا ربيعة... الحاج جلول كان يمكن أن يكون نسخة طبق الأصل للحاج السلامي، فقط لم يسأل عنه أحد من كبار القوم يريد هوية وقناعًا يتاجر به ويبيع...

يا جلال... أهؤلاء هم من تنعتهم باللصوص والجهلة؟ الفراغ هنا يفتت الحجر، وتتكلس له العواطف، والبؤس هنا، يفرغ النفوس من الفضيلة والإنسانية...

آه... صوت ربيعة يقاطعني: «بلدتي يا بني مليئة بالنفاق والكذب والظلم، لكن فرسانها صامتون... ورجالها الأحقاء لا ندري أين هم..». بلدتكِ لا تختلف عن أرض الغريب، أنا أعرف أين اختفى بعض الرجال والشباب، إني أراهم في الدار البيضاء منتشرين في شوارعها وقد تحصنوا بلِحًى كثة مخضبة بالحناء، وبسراويل قصيرة، وبعيون كحلى، والسواك يتراقص بين شفاههم، يبيعون أشياء بسيطة، ويسكنون مدنًا عشوائية، يتسابقون على الصفوف الأولى في الصلاة، يتزوجون بسهولة نساء وراء حجب... وحجب وراء حجب، يتناسلون ينتشرون، ثم يختفون فجأة، وتأتينا أخبارهم من الشام أو العراق...

جلال... يسميهم الضالين... وأنا أسميهم التائهين الضائعين... ضاعوا جهلًا وقهرًا حتى يئسوا فاختاروا جرعة كأس تصنع الحلم والوهم لا تقل أثرًا عن نبيذ العالم الفاني...

يا جلال... كلنا نسكر... ولكلٍّ منَّا كأسُه... لا أحد ليس له صنم... ولو في عقله ووجدانه... ما أكثر أصنام هذا الزمن... صدقني...

ماذا...؟ يعبث جلال في ذهني... ألم أتركه خيطَ دخانٍ يتلاشى؟ ماذا تفعل ربيعة في خاطري؟ ألم أدفنها ليلة ارتفع لوائي مرفرفًا عاليًا...؟

الضوء باهت في أرض الغريب، بعض البيوت قرب باحة النقل، تنعم بضوء المصابيح الشاحبة، وأكثر الفضاءات تضيء

بالشمع أو بفتيلات مضيئة بغاز البوطان، المغرب هنا لا يعلم بمغرب الدار البيضاء إلا في عروض الفروسية والرقصات الشعبية، حيث يسافر من هنا التاريخ المجيد، ويقبع الحاضر المرير فوق القلوب، هنا السوق الأسبوعي، على جوانبه تمددت أجساد منهكة غارقة في النوم، كلاب تنبح وأخرى تقاسم المشردين غفوتهم وأحلامهم... غربان منتشرة على أشجار لا تثمر غير الضجر والسأم...

يرمقني السائق بنظرة استغراب خاطفة، يخفف السرعة بشكل مفاجئ حتى اهتزت السيارة، وكادت جبهتي أن ترتطم بالزجاج الواقي، ثم يردف متوجسًا وقد تقلص ما بين حاجيه وطفق يفرك رقبته:

ـ نسيت عين الراعي جفت... ربما تريد شرب مائها لشفاء من سحر... لكنها عين لم يعد لها نفع لا لباحثٍ عن دواء لداء ولا لسَقَّاء... ولا يوجد خلفها غير الدار الكبيرة لأولاد السارح... أو ما تبقى منها...

ـ لا أريد العين ذاتها... ولم آت لشفاءٍ ولا لماءٍ... جئت لغرض آخر...

ـ قل لي ربما أساعدك... هل تريد شراء أرض أو بهائم؟

ـ لا... لا تهتم...

ـ أنا في خدمتك...

في هذه اللحظة جالت في خاطري فكرة جهنمية، دلكت

رقبتي، ثم تمطيت كسلًا، وقلت متظاهرًا بعدم الاهتمام والاكتراث وأنا ألوي شفتي:

ـ أنا صحافي جئت أكتب عن موضوع قديم... وربما أخطأت في اختياره... قد نعود توًّا... أظن أن لا طائل من زيارة العين... حقًّا كان علي أن أفكر قبل اتخاذ القرار... أقول لك لنعد أدراجنا...

ـ لا تتسرع... ربما عندي الجواب لك...

ـ لا أظن... دعنا نعد...

ـ أوه... صبرًا يا رجل... لنجرب أولًا...

ـ موضوعي قديم... وقعت أحداثه قرب العين... وأنت شاب... لا يمكن أن يكون لك علم بما وقع...

ـ العلم يكون بالعين والسمع... وأكثرنا هنا يمضي الوقت يسمع أو يحكي... وأنا أعرف كل شيء عن عين الراعي... منذ كان يستغلها النصراني «جرمان» إلى أن صارت بين يدي أولاد الراعي، منحهم المخزن دار النصراني وما له من أرض وضياع، لأن أباهم الراعي بوشعيب أعدمته فرنسا...

ـ جئت من أجل موضوع آخر.

ـ ربما جئتَ تبحث عن القصة الحقيقية لولاد الراعي... كنت متأكدًا أن هناك سرًّا...

ـ كيف؟

ـ يقولون إن أولاد الراعي أعدم النصارى أباهم لأنه كان قاطع طريق، وقتل نصرانيًّا وزوجته في عملية سطو...

ـ دعنا من هذا... لم آتِ من أجل الحفر في سجلات تاريخ الناس...

باستغراب يحملق في ويردد فاغر الفم:

لم تأتِ لشراءٍ ولا بيعٍ، ولا تهمك عين الراعي وما فيها من ماء، وأنت صحفي... لا يهمك حقيقة إعدام الراعي الكبير... هيه... فما الذي أتى بك إلى هنا؟

أبحث في تفاصيل قصة طفل صغير اختُطف منذ ثلاثين سنة قرب العين...

ـ تبحث عن قصة صبي اختطف من هناك...؟

يخرج من السيارة، يشعل سيجارته البغيضة، يذرع جانب الطريق جيئةً وذهابًا، يفكر مطرق الجبين، ثم يهرع باضطراب، يشغل المحرك، يضغط على الدواسة، وينطلق بسرعة وسط الغبار والنقع وهو يردد:

ـ أعرف رجلًا... سيفيدك في الأمر... لكن لا تنسَ أن تكون كريمًا معه ثم معي...

13 ◀

نبحت الكلاب طويلًا حتى غدا النباح عويلًا، دنا منها قليلًا السائق عروب، شتمها ببذاءةٍ وفحشٍ، ولعن أصلها والأرض التي هي فوقها بضجر وقسوة، وبَرَق في وجوهها لكنها ازدادت ضراوةً وشراسةً، تتراجع ولا يبقى غير كلبين متربصين، حاصراه وهما يهران بشراسة، تراجع خطوتين بخوف واضطراب حتى أوشكت قدماه أن تزل على صخرة، فصاح بارتباك وهو يهتزُّ غضبًا: «عمي المعطي... يا عجوز... أجمعتَ كل كلاب البلدة المتشردة والتائهة عندك...؟ يا عجوز... يا مجنون... لا تجد ما تأكل فكيف تطعمها... ربما تطعمها لحم ضيوفك... مَن يدري... فأنت مختل هنا ولا أحد يعرف سرك..»؟

يرتفع صوت أزيز باب يُفتَح بصعوبة، ينزلق بصيص ضوء من الفرجة، ثم يمتد الظل الداكن، يظهر شيخ طاعن في السن، يتكئ على عصاه الطويلة، تصمت الكلاب، يقترب منا، فيقترب

الضوء، آه... يا لروعة وسحر الضوء في البادية المظلمة، يتراقص أمام وجه الشيخ الفراش، فقد كان السراج الذي يحمله أقرب إلى وجهه من انحناءة ظهره من أثر السنين، وربما من الأسقام الصامتة، ففي البادية يموت الناس فجأةً، ويُدفنون في صمت في بقعةٍ ما وينفضون الناس والأهل حوله، وتُفتح صفحة جديدة باقتسام إرث إن وُجد، أحيانًا بسلام وأكثر الأحيان في ردهات المحاكم وبالعصي والبنادق...

أنا عروب ومعي ضيف...

عروب... من عروب...؟

عروب يا أهبل... مَن لا يعرفني...؟ صاحب السيارة «بوجو...».

إيه...» الخطاف»... ولد الخطاف... ومن يغار من الكلاب غير كلب أجرب مثلك يا ابن «الشفار»... أما طعامهم فالرازق لا ينساهم، وهل نسيك أنت يومًا وأنت اللص ابن اللص...؟

يضرب عروب كفًّا بكفٍّ ويغمغم بقلق وقد جحظت عيناه وقَبُح شكله:

من المجنون يا ولد المجنونة...؟ هل ما زالت أمك الحمقاء تزعم أنها تقرأ الطالع في أوراق اللعب؟

متذمِّرًا يخطو عروب ويدب في يده يغمغم بضجر:

أوف... سنأتي وليكن ما يكون... إن نهشتنا الكلاب... ذنبنا على عاتقك...

يقهقه العجوز حتى يشرق ثم يكح وحين يأخذ أنفاسه يقول وهو يخطو نحو الداخل:

ادخل ومن معك... يا ابن المجنونة... إيه... تقول الخرقاء إنها تقرأ الطالع... المجنونة... وهل قرأَتْ لك طالعك اليوم؟ اليوم سأطعم لحمك الكلاب... لِـمَ لَـمْ تمنعك المجنونة من الخروج حفاظًا على روحك الخبيثة...؟

يشير العجوز إلينا أن نتبعه، أشعر بالرهبة والخوف وأنا أمرُّ بين الكلاب المتربصة، ظلت الكلاب متوترة مستفزة لكن بدون نباح ولا هرير، نتبعه وهو يدلف بخطى ثقيلة واهنة، وعروب يثرثر ويسأل الشيخ عن صحته، والشيخ لا يجيب، فقط يهز أكتافه بضجر وتذمر فتتفاعل الكلاب مع حركاته... كان بيت الشيخ على ضفة مستنقع آسن، حيث تتعالى حواليه أصوات نقيق الضفادع بقوة، وتحلق في الأجواء أسراب من الناموس الذي يلسع الوجوه والأطراف، بل ويتسلل تحت الملابس، وتواكب كل الأصوات الموحشة خريق الريح ونعيق الغربان وصرير متنوع خارق حاد.

جلسنا على حصير، فتح الشيخ لنا علبتي سردين، ووضع أمامنا رغيفًا، وصب لنا قهوة ساخنة كانت على مجمر... لم أستطع رصد كل ما في هذه الغرفة الطينية من أثاث لأن الضوء كان باهتًا، لا يكاد يضيء مجلسنا، لكن بيت الشيخ هو هذه الغرفة فقط، ولا أهل له غير كلابه المتشردة التي تبيت في حوشه...

ـ خير... يا ابن المجنونة...؟ فأنت لا تأتي معك إلا المصائب...

ضيفي هذا يجمع أخبارًا عن عين الراعي...

قلت كل ما عندي... الراعي الكبير لم يكن مقاومًا... ومن شهد له كان من عصابته... قطاع الطرق... والنصراني والنصرانية اللذان قتلا... كان بسبب السرقة، أعرفهما... كانا طيبين... يعيشان في تلك الدار الذي يشغلها «تريكة» الراعي... كانا يوزعان علينا «الشكلاط» والحليب والكتب... كانا طيبين... قتلهما فقط لسرقة حلي السيدة... قلت هذا... فسحلني أبناء الراعي والمخزن والناس، ونبذني الجميع... لم أتزوج... لا أحد قَبِل أن يصاهرني... يصاهر مَن؟ طريدًا... منبوذًا... مغضوبًا عليه... إيه... مر زمن طويل... الكل مات... ولم يبقَ في أملاك الراعي غير أحفاد يتصارعون حول ما بقي من تركة بددها الآباء سكرًا ودعارة، ألا ترى الدار الكبيرة خربت؟

ـ يا شيخ المعطي... جئنا نسأل عن أمر آخر...

ـ المعطي هو الله... ما هذا الظلم الذي ظلمني أبي...؟ أنا عبد المعطي... ولست المعطي...

ـ لا بأس... فقط... يريد الرجل بعض الأخبار.

يتفرس فيَّ الشيخ مليًّا بنظراتٍ ثاقبة مشتعلة كالجمر، ويقول وهو ينظر يمنة ويسرة ويهش الناموس بيده:

ـ تكلم ماذا تريد أيها الغريب...؟

ترددت في البداية، ثم تنفست عميقًا وقلت:

ـ لو كان معك خبري وما أطلبه أعطيك ما تطلب...

ـ هل تعطيني الغفران؟

ـ لا أقصد... الأمر ليس بيدي...

ـ إذًا أنت لا تعطي إلا مما يُعطَى لك من نِعَم الدنيا... وأنا مكتفٍ لا أريد منك شيئًا، وإن كان عروب قال لك غير ذلك، فهو نصاب ابن نصاب ويريد أخذ مالك باسمي...

انتفض عروب بغضب، وانتفخت أوداجه، وتقلص ما بين جبينه، وصرخ:

ـ لست نصابًا يا المعطي...

ينهره الشيخ بيد طائشة كادت تصفعه في وجهه ويقول مزمجرًا بحنق:

ـ نصاب وابن نصاب وأبوك كان «بياعًا» خائنًا يخدم فرنسا...

بحرج يرد عليه عروب:

ـ والدي كان طباخًا عند النصارى... مالنا والماضي...؟

أبتسم في خاطري، وأناجي نفسي: «تعال يا جلال لترى الماضي... ما زال الماضي يحاكم الحاضر، الماضي ما زال في قلب الحاضر، الأصل ليس أسطورة، ربما يحتاج أمثال عروب إلى ثلاثة أجيال، لتبدأ سلالته من جديد، لتعيش سلامًا حقيقيًّا... إن لم يظل الخبر الشفوي المتواتر مؤرقًا وحاضرًا حتى تقوم

القيامة... ها هو الراعي الكبير ينزع عنه مجنون أرض الغريب تاريخ المجد، لم يصمت وقد نفوه وسحلوه وعزلوه بل حسبوه مجنونًا... نعم... خير لهم أن يحسب مجنونًا، حتى لا يعتد بكلامه...».

ـ ماذا تريد أن تعرف يا...؟

ـ إبراهيم يا سيدي...

ـ لست سيد أحد...

ـ أبحث عن خبر صبي اختُطف منذ ثلاثين سنة تقريبًا قرب عين الراعي...

يطرق العجوز الجبين بوجوم وقلق، تدور عينا عروب في رأسه، يترقب الخبر الذي قد يجود عليه بغنيمة، يتنهد الشيخ ويقول بحيرة وهو يفرك رقبته:

ـ أي نعم... ذاك الصبي ابن مباركة زوجة حمدون... لكن لمَ يهمك الأمر يا هذا...؟ ذاك وقع في زمن بعيد.

مترددًا أرد عليه بتلعثم:

ـ فقط أنا...

يقاطعني عروب وهو مضطرب:

ـ هو يجمع أخبار أرض الغريب في «كناش».

ـ إيه... وهل عندنا من أخبار مهمة خير تدليس الراعي الكبير، لمجده المزيف... وشهادة عصابته له وهو قاطع طريق...؟

مضطربًا يرد عليه عروب:

ـ سيدون هذا الخبر أيضًا...

ـ إن كان الأمر كما تقول، فسأحكي له قصة اختطاف الصبي... لكنها حكاية قديمة لا علاقة لها بسيرة الراعي الكبير، غير أنها وقعت في أرضهم، وقرب عين مائهم، كنت أحب لو تسألني عن العصابة التي صار لها جاه وشأن، تحكم الناس باسم بطولات مزيفة، والأبطال الحقيقيون ماتوا أو اختفوا...

أضع يدي على يده، أقبل كتفه وأقول بحنو:

ـ رجاء... أريد فقط خبر ذاك الصبي...

ـ ذاك الصبي اختطف منذ ثلاثين سنة... ومن قال لك عندي خبره... لم أتحدث يومًا في أمره... فقد لزمت الصمت حتى لا أجن مرتين...

أنحني بضعف وألثم يده، يسحبها ويقول:

ـ عجبًا... أمرك غريب... اسمع... إذًا... كانت مباركة تغسل الملابس في العين، وكنت هناك أسرح في الخلاء، فرأيت عربةً متوقفة، وامرأة غاضبة تتجادل مع مباركة، كادتا أن تتشاجرا بالأيدي، تظاهرَتْ تلك المرأة بالذهاب، وتربَّصت، دخلت مباركة بين الأشجار... لا أعرف كيف سهت عن الصغير... ربما الحاجة الملحة التي لا يمكن تأجيلها... تركت الطفل يلعب ويضحك، ضحكه كان يصلني كلما غطس يده في الماء، فابتل وجهه رشًّا، نعم... كان الأمر يضحكه، لا أعرف لماذا... لكن

كان سعيدًا بالماء وهو يرتفع مبللًا وجهه، فجاءت تلك المرأة وحضنته، لم يبك، بل ضحك في وجهها وصمت بسلام وأمان، والحقيقة أنه ازداد فرحًا ولمعت عيناه حياةً، كانت تحث الرجلَ الذي يقود العربة على الإسراع وهي تلعنه، وكانت معها امرأتان، حاولت مطاردتهما، لكن كبوت عند السفح، وانشغلت بمباركة التي لطمت وأغمي عليها... أعرف الجماعة... كان يقود العربة عباس الكوامنجي، والبتول والتي أخذت الطفل هي ربيعة... تلك الشهباء التي فتنت كل شباب أرض الغريب... فقد قضوا هنا سبع ليالٍ، وهم من غنوا ورقصوا في العرس... ربما عرس المهدي بنت الراضي...

ـ هل أنت متيقن من المرأة التي أخذت الصبي؟

ـ يا هذا... لا تتجاوز حدك... لست مجنونًا... نعم... كانت مع الفرقة التي جاءت لتحيي عرس الزواج، كانت راقصة وجميلة شهباء...

ـ وهل تعرف أم الصبي...؟

ـ مباركة من كانت معه...

ـ تقصد أمه...

ـ المهم أقول مباركة وأصمت... من أدراني أنها أمه...؟

ـ من مباركة؟

ـ زوجة حمدون الرجل الطيب... الذي منذ ذاك اليوم لزم

بيته، وأهمل زرعه وحرثه وبهائمه...

ـ ومباركة... أم الصبي...؟

ـ أقلتُ إنها أمه...؟ قلتُ هي مَن كانت مع الصبي حين استغفلتها ربيعة الشهباء، وأخذته... المسكينة... قالوا: يبس رحمها بعد فجيعتها ولم تلد أبدًا، وماتت منذ سنة، أما حمدون فهو ما زال في داره يعاني من الوحدة والمرض... هناك في عزيب «الرحالة»..

يستعجلني عروب، ننهض بعجلة واضطراب أمام ذهول الشيخ، تذكر السائق الكلاب، فانحنى وقبل رأسه، وقال له:

ـ سنرحل الآن... دار حمدون أعرفها... وليست بعيدة عنَّا... غدًا أرسل لك سكرًا وشايًا وصابونًا... والآن اخرج معنا... قد تنهشنا الكلاب...

ـ اخرجا ولا تخافا...

نخرج بعدما صاح صيحة غريبة، فربضت الكلاب وغفت... يسرع عروب الخطو ولم يتخلص بعد من خوفه، يطلق العنان للسيارة، تنطلق بجنون وهو يتأفف ويلعن المعطي والحجر والتراب، وأرض الغريب التي لا تلد غير الكلاب والضباع والمجانين، أصمت... أتمعن في غضب رجل إذا تجاوز الحد لعن نفسه، وشتم أمه وأصله، يتوقف عند باب دار خربة متآكلة الجدران ويقول وهو متوتر:

ـ انتهى دوري... الآن تعرف أصل القصة... وراء هذه

الحيطان المخيفة... أُجرتي رجاءً...

يدس الأوراق النقدية في جورب حذائه، ثم يدوس على الدواسة، وينطلق بجنون وسرعة خرقاء، لا يترك وراءه غير الغبار والظلام الدامس والوحشة في قلبي.

أجلس متكئًا على حائط الدار، قلب وحيد ينبح وراء الجدار، ووراءه التاريخ والتاريخ الذي لم يدون بعدُ، خطوة واحدة تفصلني عن نبعي وأصلي ومنارتي الجديدة في ديجورٍ عارٍ لجوج، أطرق البوابة الخشبية المهترئة، ينبح الكلب، ثم تفتح مواربًا، يطل شيخ برأسه ومصباح يدوي يسلطه على وجهي:

ـ من؟

ـ ضيف الله...

ـ مرحبا بضيف الله...

يفتح البوابة على مصراعيها، يسبقني إلى غرفة، ونحن نقطع فناءً واسعًا، يصافحني، أقبل يده، يسحبها، لم ينبح الكلب طويلًا، نهض الشيخ متثاقلًا يجرُّ أثر السنين والأسقام، قبل أن يتجاوز عتبة الغرفة، توقف لحظة، تمعن في، هزَّ كتفيه، وابتسم وهمهم: «لا يمكن» ثم هشَّ بيده على وجهه كأنه يطرد الذباب، انتصبتُ واقفًا لأسنده، ظننته سيكبو وهو يدعم جسده بيد على الجدار، لم تكن ردة فعله قاسية، بل توقف وانتصب وهو يزحر، كأنه يسوي ظهرًا تصلب بمشقة، وأطال النظر في، فضحكَتْ عيناه، تدفق الحبور من الوجه

الغارق في الزمن، وخجل الليل فتسلل هاربًا، ألم يقل العرب: «البشاشة قبل القرى»، رأيتني فيه جبهة عريضة، وطولًا نحيلًا، اقتفيتُ أثري فيه، سمرة وجهه ليست سمرة أصيلة، الشمس والطبيعة صبغت بشظفها الوجه واليدين، بياض هنا وهناك يُعلِن عن الصبغة الأصلية، حاجباه كغابة أحراش برية، عيناه كعينيَّ واسعتين برموش خفيفة، ما زلت أبحث عني فيه، أطال هو أيضًا النظر... أيبحث عن نفسه في؟ في نعليه أثر لقدمي، نعل منحرف ونعل مستو، كذلك... فابتسم وقال: « أخِفتَ أن أسقط يا بني...؟ لقد سقطت منذ زمن، وما بقي في غير ما ترى... لكن لا بأس... أسندنا فالأمر يريح قلبي لا جسدي».

اختفى فتجرأت العتمة، وزحف الليل بأصواته الخارجية الموحشة، عاد فاختزل الكون في الحجرة، وتلاشت الأصوات الموحشة، ورجع الليل يطل علينا من وراء الجدار، وضع بيضًا مسلوقًا وزبدة ورغيفًا من شعير... وقال ولم يتوقف عن التفرُّس في: «كُلْ يا ولدي..».

سوى لي فراش نومي، ووضع السراج على أرضية نافذة مستوية قرب رأسي ببشاشة: «لا تستعجل إن كان خيرًا أجلناه، والفرحُ فرحٌ، اليوم أو غدًا، لن ينقص منه الزمن شيئًا، وإن كان شرًّا أخَّرنا إذًا همَّا وفُزنا بفرح هذه الليلة»... أشعر برغبة جامحة في أن أرتمي في حضنه وأشمه شمًّا، قد لا يحتمل قلبه...

يجر ظله ثقيلًا نحو غرفة جانبية، يعود الليل إلى غرفتي، وترتفع أصوات الوحشة والغربة، أسمع الآن احتكاك حبال الرياح والشقوق، أسمع الصرير والنقيق والنعيق، أسمع أنفاسي... أنتظر قدري.

14 ◀

رذاذ خفيف يغسل وجه الأرض، بوتيرة منظمة، وإيقاع جميل سحري، يبددان عني الوحشة والقلق، أبحث عن النوم في عمق الوسادة، أتقلَّب على الفراش تقلُّب المؤرَّق المهموم، وما همي سوى غدٍ أجهل كيف سيكون، وخوفي على شيخ عجوز، تصلني همهمات تضرُّعه العميق، تكبر الأصوات المختلفة القادمة من الخارج في عقلي، يكسر ما تحمله من وحشة، صلاة جهرية لأبي ولو بصوت خفيض، سراج غرفته غير مضاء، كيف له أن يتعبَّد في الظلمة؟ ربما يكفيه ضوء القلب وسراج الروح، أنسج كل الاحتمالات الممكنة، مشاهد تقفز بي بين الرجاء واليأس، أنتظر الصباح بفارغ الصبر، أتقلب في جمر السهاد إلى أن ترمي لي عتيقة بطوق نجاة في يم التوجس، تحضر في خاطري غوايةً ولوعةً، أنعش زمنًا قصيرًا أمضيته معها، هو أجمل ما أحمل من ذكرى وعزاء، أحفر في ترسباته

في شفتي وجلدي، عطرها قادر على منحي الخيال في غيابها الجسدي، صارت جزءًا مني، صارت قِبلة الروح والبوح والسر المكنون، رحلَتْ دون أن أعرف أدنى تفاصيل عنها وعن حياتها، لم تمنحني جسدًا غارقا في الغواية، بل منحتني عزاءً يرفض إشهار هوية للعبور على جسر الوجع، كنا نحن وما حولنا، كان الفناء، كأننا غدونا خفيين، لم تكن لنا قواعد ولا مرجعيات، كنا نرتجل ونتعلم خطوة خطوة، كنا نعبر من مقام إلى مقام بلا لوم ولا عتاب، بلا خوف ولا سجال، بلا توافق ولا اتفاق، كنا فقط نرتجل اللحظة واللحظة ترتجلنا، ما أفظع الوحدة، الوحدة التي أعنيها هي الغربة بين الناس وأنت مع الناس، لأن قلبك فارغ من الحب، وجوارحك تشتاق حديقة خفية، تنسيك صحراء الأيام القاسية...

المرأة يا عالم كوكب لا يُكتشف بالكامل، كلما سافرنا إليه وفيه، أدهشتنا تضاريس جديدة، وتجليات لجمال لا مُنتهٍ... إنها القسوة اللذيذة، إنها الضعف القوي، إنها كشف مستمر البهاء والخفاء...

يقول جلال «العشق أسطورة ذكورية، إنه التفاف حضاري حول ملكية الجسد واحتكار اللذة...»يقول جلال بفخر وهو يتربص بالأنخاب «لا تصدق عاهرةً يعصرها العشق».

الليلة أعيد السؤالَ نفسه عليك... وأسمع قهقهتك... وصمتك... ثم ابتسامتك الساخرة، ربما رددت مرارًا في خاطرك

أني أحمق تُربِكني العُقد والأساطير... يا جلال... العاهرات يعشقن لأنهن نساء كباقي النساء... ترفع لهن الأنخاب على المشرب وتقول لي إنهن مناضلات وأفاع، كل ما فيهن تمثيل وادعاء، حين يعشقن فهن ينسجن فخاخ المكيدة والمصيدة، حين يعشقن فعشقهن كدودة شهية تتلوى على لسان فخ، تغري الطيور بالسراب، ليكون الموت خنقًا... أقول لك... صدقتك طويلًا، لكن حين أستحضر بنات الهوى في دار ربيعة، أستحضر قصصًا غريبة سمعتها وعشتها، بعضهن كنَّ يعشقن حد الجنون، قد يكون الحبيب عابرًا يبحث عن لذة عابرة، فيقلب حياتها رأسًا على عقب... نعم العشق حقيقة وليس أسطورة، لا تبرر اختيارك المزيف للعفة المزيفة، لا تبرر انتحارك العاطفي بزيف الآخرين... قدم نخبك على المشرب وامض... اتل بيتين لدرويش، وأَسمِع السكارى خطابك الحربائي، وعُدْ لتلك المسكينة التي حاصرْتَها وراء الأسوار، يراقبها حارس شيخ منك، وكلب شرس تطعمه من خوفك وهواجسك، يا صاحبي... لم تعُدْ صنمي... يا جلال قدم نخبك للوهم، وخذ وهمَكَ مع ظلك وخوفك، واتركه عند الحارس الشيخ قبل أن تفتح غرفة نومك...

لم أعرف متى غفوتُ، وجدتني أصحو بصعوبة على طرق والدي لباب الغرفة، بعد الفطور، سحبني بحنوٍّ وبشاشةٍ من يدي نحو عين الراعي... قال: «لكل شيء بداية، والبداية من عين الراعي... وعين الراعي وإن جفَّ ماؤها، لم تجفَّ أخبارها..».

يمشي وئيدًا، يغلبه الزحير ويصدر من صدره الصفير، تشرق الشمس علينا على الطريق، تتعقبنا أعين حائرة، بنظرات خاملة، وأجساد تتمطى، وأفواه تتثاءب، النساء المبكرات يمررن كالظلال، يخضضن الأبصار أو يسدلن عليهن ما تبقَّى من مشدات للرؤوس، يغيرن الطريق كلما لمحنَ رجلًا غريبًا مهرولاتٍ، الرجال وحدهم مَن يتوقفون، ويمعنون في النظر، هذا يحيي، وذاك يسلم بحرارة، نخترق قطيع غنم، يضحك أبي من حثيث الراعي وهو يعاتب كلبه الذي تلهَّى عن القطيع بالعدو بعيدًا، الدُّور غير متقاربة، لكنها متشابهة من حجارة أو طين، تختفي أسوار قصيرة من حجارة ونبات الصبار، التربة أقرب إلى البياض، حدَّ البصر تمتد هضاب كئيبة، تعبرها ظلال باردة من حين لآخر، كلما حجبَتْ سحبٌ عابرةٌ ضوء الشمس المتلعثم، غابات حقول الشعير منشية برذاذ الليلة الماضية، البؤس تخفيه الابتسامات والوجوه البشوشة، لكن هناك قسوة في الأكف والنظرات، وتوجس في الكلام والخطوات، تكاد الألسن تنطق: «من معك يا حمدون...»؟

على ربوة مطلة على آثار عين الراعي جلسنا، وراءنا دار أولاد الراعي العالية والممتدة كقلعة من القرون الوسطى، تراقب العالم بنوافذ متعددة، وبرجين متهالكين...

ـ يا بني... جاء عندي عروب بعدما نمتَ وأخبرني بقصتك، لا تُسِئِ الظنَّ به، فنحن نخاف على بعضنا البعض، وها هو سيأتي بعد حين...

جرَّ المعطي خطواته نحونا، سلَّم وجلس... أخرج أبي رغيفًا وقدمه له، وقال مبتسمًا: «ما زلتُ حيًّا يا المعطي لم يقتلني الشاب... ولِـمَ يريد بي أحدهم شرًّا...؟

حملق فيه باضطراب وقال متلعثمًا: «مَن يدري...؟ فأولاد الراعي يعرفون أنك تعرف مثلي...».

رد عليه أبي متحيرًا: «يا أخي... كنَّا صغارًا أنا وأنت وسمعنا هذا الكلام من غيرنا من شيوخ ماتوا منذ سنين...».

يغضب عروب يضرب الأرض بقدمه ويقول: «لا... أنا أعرف القصة من أبي... فقد كان قاطع طريق... وقطاع الطرق يعرفون بعضهم بعضًا... حكى لي الحكاية أكثر من مرة...».

بضجر رد أبي: «دعنا من هذا... إيه يا ولدي... ما تبحث عنه نصفه عندك... تعال... اقترب مني..».

دنوت منه فحضنني وهو يبكي حتى استغرب وقال بعجب: «ما بك يا حمدون... هل ذكَّرك الشاب بابنك»؟

أجلسني والدي قربه، وقال: «كلهم يعودون يا المعطي... هذا الشاب هو ولدي..».

سُقط في يدي من الذهول، كيف عرفني؟ هل رأى فيَّ أثره؟ هل هو فقط مجرد حدس؟ عانقته بقوة وبكيتُ وأنا أردد:

ـ كيف عرفتني يا والدي...؟

ـ عيناك... كفاك... يداك... خطوك... رائحتك... وما تبقى منك فيه أثر لأمك ربيعة...

ـ اللعينة... لم تكن أمي... أبدا... سرقت طفولتي... وقتلت أمي كمدًا...

ـ اسكت يا بني... لا تلعن أمك... إذًا أنت لا تعرف القصة كاملة...

ـ أي قصة يا أبي...؟

ـ قصة اختطافك وإلا ما لعنتَ ربيعة...

ـ ربيعة ماتت يا أبي...

ـ قل: أمي وترحَّم عليها... فقد آذيناها جميعًا...

ـ كيف أقول أمي...؟ هذا جنون...

ـ لو عرفتَ كلَّ القصة لكرهتني...

ـ أعرف القصة... مِن هنا أُخِذتُ خُطِفتُ... هنا تركتُ آخر ذرة من طفولتي البريئة...

أجهش أبي بالبكاء، حتى بلل لحيته، والمعطي يواسيه مربتًا على كتفه مرددًا: «كنت أعرف الحقيقة، وصمتُّ، خفتُ أن تنكر يا حمدون فأصير مجنونًا بحقٍّ وحقيقةً... خفتُ أن يقولوا افترى على الراعي الكبير وهو يفتري الآن على حمدون... لقد كنتُ هنا يومها، وسمعت المرأة التي أخذت ابنك... تقول لمباركة: «ردي إليَّ ابني... حرام عليكِ... ومباركة تهددها

وتتوعدها... وصمتٌ... لم أصدق سمعي...».

يحاول أبي أن ينهض، تخذله ركبتاه، أسنده، ينهض وهو يردد: «خذني إلى البيت...».

15 ◀

قال أبي وشفتاه ترتعشان: «يا بني... قبل أن تفتح عينيك في الدنيا بسنة أو أقل، منذ ثلاثين سنة ونيف، أصرَّتْ مباركة ابنة عمي وزوجتي على زيارة قُبة «لالة صافية البحرية» وقد كانت الزيارة بغرض الحصول على الذرية، فقد تزوجنا منذ عشرين سنة آنذاك ولم نُرزَق بالولد، خافت أن أيأس وأتزوج عليها، وما علمت هل العيب مني أو منها، كانت تبكي طويلًا كلما أحبطت عزمها ورفضت تنفيذ رغبتها، فالله هو الذي يرزق الذرية، لا ضريح ولا قبة في جبل عالية، ولا بين صخر وحجر في بلدة نائية، ولا قبر في منطقة قصية... لكن ماذا أفعل...؟ وقد تكالب الجميع علينا أعمامي وعماتي، وأنا يتيم الأب والأم، ونشأت في كنف عمي منذ كنت رضيعًا، فقد ماتت جدتك وهي تلدني، وطحنت حصَّادةٌ جسدَ جدك في السنة نفسها، مباركة رحمها كانت تظن أن السحر هو الذي أجدب

الرحم، هذا ما قالته لها عرَّافة مرَّت من البلدة، وأوهمتها أن الخصب عند سيدة الصخرة، لالة صافية، واهبة الزوج والولد، وأوهمتها أن العيب ليس في الماء وإنما في الأرض الجدباء من سحر قديم، ينزع البذرة قبل التبرعم، تلكَّأتُ عشرين سنة، ثم ضعفتُ لإلحاحها وتكرارها وبكائها وحزنها، صاحبتها إلى حيث تريد، فقد كانت تموت أمام عيني كل يوم وهي محاطة بأطفال يولدون ثم يكبرون ويتزوجون...

حللنا بقرية «لالة عريشة العالية البحرية»، حيث تنتصب قبة خضراء على شاطئ صخري صعب العبور، تحيط به المياه من كل جانب كجزيرة عند المد، وللوصول إليه يلزم انتظار الجزر، اكتريت غرفةً جانب الضريح، نتقاسم حيًّا يسكن غُرَفَه مَن في همِّنا ويأسنا أو أكثر، من العوانس الراغبات في الزواج، والعقر والعواقر، سامحنا الله، قدمنا الذبيحة والسكر والشمع وماء الورد والمال للقيم على الضريح، لم أرَ لا قبرًا ولا رسمًا ولا أي شيء يدل على ولاية صالحة، فقط النهب والجهل والسخط واللعنة والشرك والدعارة والسكر، جاء دور مباركة، فدخلنا على امرأة قبيحة الوجه، بها زبيبة سوداء مخيفة طافحة كبيرة على خدها، في غرفة متسخة، طلَتْها بالأخضر الفاتح، وغطت النوافذ بستائر عفنة خضراء، وانتشرت في الأجواء رائحة الدم والبخور والكافور علَّها تغطي على رائحة دماء الذبائح القذرة، أخبرتنا عن اسمَيْنا وبلدنا وقصتنا وزمن عقم مباركة، عجبَتْ وسُحِرَتْ حتى ترسَّخ صدقها، وزاد إيمانها، وأنا لا أشكُّ في شر

العجوز، وما جاءت به ليس غيبًا، فقط قريني أو قرين مباركة مستعدان لخدمة الساحرة عبر شيطانها، ومباركة أعماها الجهل واليأس... أمروني نهرًا بقسوة أن أخرج حين رأوا في عيني الشك والتوجُّس، فكلما ذُهِلَتْ وفُتِنَتْ مباركة وسبَّحَتْ، كنت أضرب كفًّا بكفٍّ، وأحدجها بنظراتٍ قاسيةٍ، لم يَرُق للعجوز الكاذبة أمري، قالت إن الأسياد لا يريدونني هنا، فخرجتُ متذمرًا وندمت حتى آلمتني الحسرة والخوف من الله، فلا يعقل لمثلي حافظ كتاب الله، ويعلم حقَّ العلمِ الشركَ، أن يضع مصيره بين هؤلاء الدجالين، وما الكاشف للضُّرِّ غير الله، وما المعطي غير الله عالم الغيب...

عدت لغرفتي وانتظرت عودة مباركة، فدنا مني شيخ في رث الثياب، أغبر الأوجه والهيئة، أشعث الشعر، منحني القامة، يكاد يكون أحدبَ، حافي القدمين، كان ضامرًا نحيلًا من سوء طعام ومرض، يبدو أنه يسيح هنا ويعيش في خرب الشاطئ الصخري، طلب صدقةً، منحته رغيفًا وسكرًا وشايًا وقطعة لحم، فقال: سأخبرك بشيء... ثم همس في أذني بخوف وتوجُّس وهو يلتفت يمنة ويسرة ووراءه: «لا تصدقهم إن كشفوا لك غيبًا، فأكثر جيرانك هنا من النساء والرجال ليسوا غرباء ولا زوارًا، هم هنا يستدرجون الزوار في الحديث، فيعلمون منهم ما يساوي أجرًا عند العرافين والعرافات والقَيِّمين على الضريح... سيحكون لك حكايات من عجب... لا تصدقهم... تلك حرفتهم... رواية الكذب وجلب الزبائن... كلما زاد

الزوار... أخذوا أجرتهم من الجزار والبقال والسائقين والعرافين والعرافات والسحرة... هم عصب التجارة هنا... وقد يجولون القرى نشرًا لبركات مزيفة..».

رفعت رأسي وقد غلبني العجب، فهرول بعيدًا وهو يقهقه ويهتز وينط بجنون.

ما إن هممت أن أقف منتفضًا منتصبًا بغضب لإحضار مباركة بعدما سمعتُ ما سمعتُ، حتى تناهى إلى أسماعي صراخٌ عالٍ وجلبةُ صخبٍ، وتصايُح ووَقْع عَدْوٍ سريع مثير للغبار، فلمحتُ من كوة الغرفة المطلة على باحة القبة، جمعًا من الناس يركضون وراء امرأة، تمعنت جيدًا، فلم تكن غير زوجتي عاريةَ الرأس، حافية القدمين، تجري كالمجنونة، تكبو بتلابيبها، فيتحلقون حولها كالضباع الجائعة، وفي أيديهم حبال وقد همُّوا بتوثيقها، لولا أنني مرقتُ كالسهم واخترقت الجمع، وأفلتها من أياديهم وهم يتصايحون: «دعها لنا، فالجن هو الهارب وليست هي..».

تظاهرت بالتفهُّم والاستسلام خوفًا منهم، فقد كانوا ذوي بأس وشدة، وعدتُ بها إلى العرفة...

هدأت بعدما شربَتْ ماء وقالت مرتجفة باضطراب وخوف: «يا حمدون... إلا هذا... هؤلاء يخدمون إبليس، إن لم يكونوا هم شياطين... يا فضيحتك يا مباركة... يا مصيبتي... العجوز الشمطاء القبيحة الوجه، قالت لي بعدما خرجت: «اسمعي...

سيدخل عليك فحل من فحولنا... ثلاث مرات في اليوم... ستقضين هنا ثلاث ليالٍ، وفي الليلة الرابعة نامي في حضن زوجك، واغريه حتى يقع بينكم ما يجب أن يقع... فإن كانت العلة فيه حملتِ... وعودي كلما رغبتِ في الحمل، وإن كانت العلة فيكِ... أعطيناك رضيعًا... ولكل شيء ثمن»... فهربتُ... يا حمدون... هربت...»سرى الغضب في دمي، كدتُ أجنُّ، بل فقدتُ صوابي، فانطلقتُ نحوهم كسهم انفلت من قوس، فما إن وصلتُ باحة الضريح حتى خرج رجال أشداء وضربوني حتى كدتُ أهلك، وتصايحوا: «لص... لص..». فكان كل مَن يسمع يضربني أو يركلني أو يصفعني ثم يبزق في وجهي شاتمًا.

غادرنا نحو مدينة أزمور، وقررت أن أظل هناك حتى أشفى، فقد استحييتُ أن أعود وحالي ينفطر له قلب العدو والصديق، ظلت مباركة تمرضني وأقرأ في عينيها يوميًّا الخيبة والقلق، لكنها كانت زوجةً فاضلةً، فقد رفضت عرض الشيطان، وهربت من لعبتهم الخبيثة، وهذا جعلها في عيني كبيرةً وسيدةً ولا كل سيدات الدنيا.

وذات يوم أتت مباركة بربيعة، ربيعة التي كانت مع «رْبَاعَةْ شْيَاخ» أي فرقة غنائية شعبية والتي كان يرأسها «الكوامنجي» عباس، وكانوا يُحيُون عرسًا في بادية «الحوزية»، فهربَتْ إلى مدينة أزمور، واستجارت بوليها «مولاي بوشعيب»، بعدما راودها على نفسها والد العروس، بحضور الكوامنجي «الرايس» عباس الذي أخذ ثمن جسدها، وجدَتْها مباركة تائهةً ضائعةً

في أزقة المدينة، تتسوَّل نهارًا وتنام في فناء الضريح ليلًا بين الحمقى والمتشردين والمتشردات والمدمنين... فأحضرتها، قالت بثقة غريبة: «سأزوجك هذه الفتاة، اسمها ربيعة... لتلد لك... هي تلد وأنا أربي..». لم تمانع ربيعة، يبدو أنها أرادت سقفًا ودفئًا واستقرارًا وأعياها التجوال رفقةَ عباس القواد وباقي زميلاتها اللواتي صرن بين يديه سلعةً يتاجر فيها كيفما شاء، وكنَّ عرضةً للقهر، يعرضهن الخبيث «الكوامنجي» عباس مقابل المال في كل عُرس، تزوجتُها... والحقيقة أني أنست بها، وارتاحت لها جوارحي وقلبي وعقلي، حتى غارت مباركة، فصارت متبرمة، متذمرة، تشتمها بماضيها وتُذكِّرها بزمن أرادت المسكينة طيَّه، ظللنا في مدينة أزمور حتى جئتَ للدنيا بعد تسعة أشهر بالتمام، لكن وقع ما لم أكن أتوقعه، غارت مباركة غيرة لا عنان ولا لجام لها، وجمحت كفرس برية بقسوة وفظاظة، وقد لمست حبي وتعلقي بربيعة، فضغطت بقوة وإلحاح عليَّ أن أطلق ربيعة، لم أَلِنْ، ولم أخنع لها، فقد صارت ربيعة مهجتي وفرحي، فالتحق بي أعمامي وعماتي، فأحاطوا بي مؤنِّبين مُقرِّعين عاتبين مهددين بوحشية وبذاءة، يُعدِّدون نِعَمهم عليَّ، وخيرهم وفضلهم، فتكسَّر ظهري، وضعُفَتْ هِمَّتي، وانهرتُ أمام زوبعتهم العاتية؛ فطلقتُ ربيعة... وأخذنا الولد وعدنا إلى أرض الغريب... وتركنا ربيعة للمصير المجهول... لن أنسى تلك النظرات القاسية في عينيها وهي تصرخ: «يومًا ما سأعود وأسترجع ابني يا حمدون..».

نسيتُها أو بالأحرى تناسيتها، ونسيت مباركة أنها تربي ولدًا أخذته قهرًا غصبًا من أمه، حتى ظهرَتْ بعد عام بالتمام، مع فرقة الكوامنجي عباس، جاؤوا لإحياء عُرس زواج دامَ بأرض الغريب سبع ليالي، وزارتنا وطلبت رؤيتك... فقط رؤيتك، فطردَتْها مباركة بقسوةٍ وشدَّة، فغادَرَتْ بحزن وحسرة والخيبة ترتسم على جبهتها، دون أن تنبس بكلمة... ثم وقع ما وقع واختطفَتْكَ قربَ عين الراعي، صرخَتْ مباركة... لكنها كانت ضعيفة عاجزة عن الجري والعدو، ثم أغمي عليها... بقية القصة تعرفها...

ـ تقصد يا أبي...

لاذ أبي بالصمت، ورأيتُ في وجهه حزن الدنيا والآخرة، كان خائفًا... مضطربًا... ضائعًا...

عينا والدي تتطلعان إليَّ باضطراب وقلق، تستجديان عطفًا يخفف ألـمًا قديمًا، شفتاه ترتعشان، المعطي ضائع في مكانٍ ما، ينقل نظراته بيننا مُحملِقًا بذهول، يطرد الصمت ضوضاء الحكي، ويعمق في القلوب مشاعر التوجس والترقب، والدي منهار، يحترق من الداخل، ودخان غاباته المحترقة يخنق أنفاسه، ويُضعِف بصرَه، يحاول أن ينهض هربًا من الموقف، طلبًا للهواء والرجاء، ربما بحثًا عن خلوة تليق بالنحيب والبكاء... تخونه ساقاه المرتجفتان، يكاد يسقط، أسرع إليه غريزيًّا، يغلبه قبل أن يختلي بضعفه البكاءُ، يبكي المعطي

أيضًا كطفل صغير، تهرب مني الدموع، وأضيع بين مشاعر مضطربة، أستحضر أمي... ربيعة... وهي تطلبني قبل لحظاتٍ من رحيلها، وأنا أمتنع... صرت إلهًا... أوزع الجنة والجحيم لحظةَ استعبدني شيطان الانتقام والثأر، الثأر لا يحقق العدالة، القتل نفسه لا يحقق العدل، حتى القصاص لا يعيد التوازن للحياة؛ لهذا... الصفح أقوى... والعفو أكبر قصاص... لم أكن مستعدًّا للعفو... ظلمتُ أمي تطلبني... ربما أرادت أن ترمم شروخ حكاية البتول، ظللتُ خارجَ غرفتها، كانت هناك... تلفظ آخر أنفاسها، آخر الرجاء في قلبها، أن أكون بجانبها، أن أراها وتراني وفي عيني الحب والسلام والبر... ظنَّ خالي أنني لا أطيق رؤيتها تودع الدنيا... والحقيقة أنني كنت أعذبها، أنتقم منها... يا أبي... لقد قتلتُها قبل أن تموت... يا أبي... لقد حرمتُها من وجه ابنها ينير لها دربَ العبور، كانت عاهرةً... لا يهم... لا يهم... لقد كانت هي الضحية مليون مرة...

إنها أمي يا عالم... أمي... لا مناضلة ولا فاضلة يا جلال... هي أمي فقط... وهذا يكفيني، جرعة أمومة، ووجود فارِقٌ في الحياة، نعم... كانت دارنا مصيدةً ينصبها رجال الفجر، ليلًا ويأخذون الطريدة صباحًا... حية... ثم يذبحونها وهي خانعة، يقصون أجنحتها ثم يطلقون صراحها... لكن أمي امرأة غدر بها الزمن والزوج وتنكرت لها القبيلة، كانت ضعيفةً، قصوا جناحيها هي أيضًا، فصارت عينهم وفخاخهم ومصيدتهم مرغمةً في عالم لا مكان فيه للمرأة إلا كخريطة للجنس والقهر...

آه... أين الدمع ليغسل غصتي وناري... العار يا صديقي أكبر من دعارة امرأة في زمن العهارة، العار هو القهر والظلم والطغيان والاسترقاق والجهل... العار... أراه في عيني أبي الآن وهو يسترجع كيفَ سمح لنفسه بتقديم زوجته لماخور باسم الأسرار الربانية، كيف سمح لنفسه أن يتزوج يائسة، يجعل منها رحمَ تخصيبٍ لحيواناته المنوية، ثم يطردها وزوجتها كأي غريبة... العار عاره... وليس عار أمي ربيعة... ولا عاري...

غادر المعطي وهو يجمع شتات عقله، ويعالج اضطرابه بلا مبالاة مفضوحة، مطرق الجبين، حتى إنه ضاعت نظراته وراء ضعفٍ طارئ... واعتكف والدي بغرفته، طالبًا الملاذ والراحة في الصلاة، فاختلط الدعاء بالرجاء، والخشوع بالدموع، أما أنا فدخنتُ حتى اختنقتُ واختفيت وسط سحابات الدخان... فضاق العالم، وتقلص الهواء، وكدتُ أن أسقط مغشيًّا عليَّ، سيقول جلال لو علم بالحكاية: «ألم أقل لا تحفر بعيدًا، قد تجد عفريتًا مريدًا... عش يومك يغنيك عن وجع ماضيك ووسوسة غدك...»؟

أكاد أسمعه الآن يرفع الأنخاب لبائعات الهوى على المشرب مرددًا: «حاضركن هو مصيركن، حررن أنفسكن من قيود الذكور أيتها المناضلات».

وفي اللحظة نفسها أتتخيل زوجته التي أتى بها من الريف وراء أسوار إقامته وحيدةً حزينةً... تراوغ صقيع الزمن بدفء

النظر إلى الخارج من كوة يتيمة بالمطبخ، فكل النوافذ موصدة، يهرُّ تحت الكوة كلب شرس أكبر أمانيه أن يتخلص من سلسلة تخنقه، وتحتها حارس عجوز تخذله مثانته، فيتبول في الحديقة وهو يلعن صاحب الدار.

انتظرت أن يحل البكاء فيكون الشفاء المؤقت... لكنه امتنع أن يكون طرفًا في زمن الخيانة والغدر...

ثم رحلتُ غير مودِّع لا لغةً ولا إشاراتٍ... أحمل في قلبي خيبةً أخرى، وفي عقلي تتناسل أسئلة جديدة للإجابة عن وضع جديد، ألتفت وأنا أمشي حثيثًا كأني أهرب نحو سيارة عروب من وجه أبي الحزين، فقد كان واقفًا على عتبة الدار منهكًا... متقوس الظهر منهارًا، يلوح لي بيده الضعيفة، كأنه يستجدي عفوي وصفحي، وكنت حقيرًا وضيعًا قاسيًا، فلم ألوح له، وتعمدت تركه يغرق متخبطًا بجزع في مستنقع الحيرة والتيه، هل ما زلت سجينَ مشاعر الانتقام...؟ ألم أتخلص منها...؟

مرة أخرى أضيع في المنطقة الوسطى الداكنة بين الحب والضغينة... ما أقساكِ يا حياة...

رميت بجسدي داخل السيارة التي انطلقت بجنون، وصارت المسافة دهرًا من الزمن، كأن عروبًا لمس حيرتي وحزني القاتلَيْن، أو ترقب عاصفة غضب تتشكل في صدري، فصمت طول الطريق وهو يقمع رغبته الجامحة في الكلام بحركة متواترة رتيبة لركبتيه، دخنتُ بقية سجائره الرخيصة من

علبته ولم يتذمَّر، ظل ينقل نظراته الحائرة بين وجهي والزجاج الواقي، مررنا على عين الراعي، فنبس متلعثمًا بارتباكٍ قائلًا وهو ينقر المقود بسبابته بتوتر جلي: «ربما المعطي على حق... فما تركه الراعي الكبير... بدَّده الأبناء والأحفاد، ومطر الليلة الماضية أسقط جزءًا كبيرًا من سور دارهم الكبيرة».

لم أرد عليه، فتنهد وشغل المذياع، مقرئ يرتل القرآن، كان يأمل في غير ذلك لكنه خجل من تغيير القناة أو شعر بالرهبة، فقطعنا الطريق، في جو جنائزي.

16 ◀

عتيقةُ لا تحل إلا ليلًا، قبل قليل رن الجرس، فتحتُ ودخلَتْ كالعادة، ألهبتني بقبلة عميقة وحارَّة، ما زالت متوترة، تنظر إلي وفي عينيها قلق لا يمكن إخفاؤه، جلسَتْ وسحبتني بقوة حتى غدوتُ ملتصقًا بها على الأريكة، وقالت وهي تسرح بنظرها بعيدًا: «حاولت ألا أعود، ظننتها نزوةً ستبرد على السرير، لكنها كانت أقوى من شعور عابر، للأسف أحبك...».

مسحت رأسي بيدي بذهول ودهشة غامرتين، عدتُ أتفرَّس في هذا الوجه الدائري الجميل، ومددتُ يدي أداعب شعرها الفاحم المثير في قصته القصيرة، حملقَتْ في بعينين واسعتين، ورموش غزيرة بهية، شعرت بشفتيها الممتلئتين القرنفليتين ترتعشان، شبكتُ أصابعي الغليظة بأصابعها الطويلة الرقيقة كأصابع عازفة بيانو، في تبايُن غريب وجميل، كانت زهراء البشرة قصيرةً دون عيب، ممتلئةَ الجسد دون سِمنة، ذات

ساقين مثيرتين كأنهما نُحِتتا من شمع، كي تقبلني كان عليَّ أن أنحني بقامتي النحيلة الطويلة، انتصبتُ واقفًا وقلت بقلق: «أنت مجرد حلم... سترحلين كالعادة... يا عتيقة..».

ارتمت في حضني وعيناها ترفلان بسرعة وهمسَتْ وهي تكبح رغبةً جامحةً في البكاء: «لا... لا... جربتُ أن أتخلص من طيفك... لكني فشلت... وخوفي ألا تبادلني الشعور نفسه...».

سحبتُها نحو صدري، كانت ترتجف، تنهار بكبرياء أشار إليه الدمع، همستُ في أذنها: «أحبك... ما أحببتُ غيركِ... لكن لم أعد قادرًا على الخيبات، تحمَّل قلبي ما يكفي... حياتي كلها انكسارات... لكن خيبتي معكِ قد تكون القاتلة، لم يُجبَر قلبي بعدُ... دعيني أرجوكِ لحياتي إن كنتِ عابرةً... ما عدتُ أحتمل العابرين في حياتي... رجاءً... رجاءً... أتوسل إليكِ... اخرجي من حياتي... قبل أن تصيري أنتِ الوجود كله..».

بوحي زاد لوعتَها، فاختلط لديها البكاء والضحك، وقالت وهي تفلت من بين يدي كراقصة بالي: «أحقًّا... يا إبراهيم... أتريدني أن أخرج من حياتك...؟ يا حبيبي... أنا وجدتُ فيك حياتي... خروجي من حياتك يعني الموت بالنسبة إلي... يعني الضياع... أنت صرتَ سبب وجودي... أحلم بأنفاسك، أصحو على صورتك... على أغنية أحسبها لك ومنك... لا... لا... قدرنا مشترك... أحبك...».

لم أرد عليها، لم أعد قادرًا على الانتظار، أكاد أنهار قبل أن

أصل قمة الربوة، أسحبها بقوة، تهوي في حضني بإغراء وتهتك، يناديني هامسًا السرير والصهيل، نطلق عنان الفرسان، نفتح البوابة، يعدوان بعيدًا عن الأضواء، يصيران ملتحمَيْن على ربوة وهما يقفزان، ثم يختفيان وراء الشمس، يتضاءل ما حولنا حتى يختفي، نسكر من كأس ما نعصر من فواكه الحدائق السرية، يختلط وجودان، تتمازج ظلالنا، ينام العقل مؤقتًا، تزحف الغابات نحو الغرفة الحالمة، تطل علينا الشرفة، أسمعها تضحك، نورس يبيت لأول مرة هنا، هل تضحك لنا الشرفة أم تضحك للنورس الذي أخيرًا رحب بها وقبل دعوتها..؟ فالنوارس هنا لا تبيت في حضن الغريب... وشرفتي غريبة خشبها صقيل وزجاج وألمنيوم، ولبنات الحاجز معزولة بالإسمنت والخرسانة، وشرفات البيوت القديمة من طين صامد ولبنات من خليط عجيب للطين والقش والتراب الأبيض...

النوارس أحبت شرفتي أخيرًا... أتغار الشرفات القديمة المتهالكة...؟ أشعر بها صامتة بوجوم ترقب هي نفسها تبدل المشاعر والدروب، كأنها في غرفة إعدام، تنتظر أن ينفِّذ فيها الحاج السلامي حكم الإعدام، خير لها أن تتهاوى وتسقط بثقل تاريخها لا بفؤوس جلاديها، كم هي معذبة وهي تشهد كل يوم إعدام عشرات الشرفات القديمة... الأمرُّ من الموت أن ترى الأحبة يموتون أمام أعينك وأنا تنتظر دورك بعجزٍ.

تسلل ضوء الصباح من بين الستائر، طار النورس مبكرًا، ضجَّ الزقاق بصياح الباعة، وصخب الأطفال، لا أجد عتيقة في

فراشي، أنتفض واقفًا وأنا أغطي جسدي بالإزار وأجر ذيله في الشقة، كانت هناك في المطبخ، ابتسمَتْ وقالت: «لا تقلق لن يُفرِّقنا غير الموت».

ـ ما حكايتك مع أمي...؟

ـ تعال... نجلس... سأحكي لك ونحن نفطر.

جلسنا، نظرَتْ جهة الشرفة، وقالت:

ـ أمك خيرها كبير عليَّ وعلى أمي...

ـ كيف... يا عتيقة...؟ أمي كما تعرفين...

ـ أعرف... لكن الصورة عندك غير مكتملة... أمك رحمها الله كان لها أفضال على كثير من النسوة والفتيات الضعيفات.

ـ لا أفهم...؟

ـ كانت كل فتاة واقعة في مشكل تأتي عندها طلبًا للستر...

ـ كيف...؟ هذا أمر غريب؟

ـ لا غرابة في الأمر... منذ أربع وعشرين سنة... جاءت أمي لهذه الدار، قامت بمحاولة انتحار على البحر، فأوقفتها البتول... البتول أظنك تعرفها...

ـ نعم أعرفها...

ـ المهم... جاءت البتول بأمي إلى دار ربيعة وهي حبلى، وهي حينذاك دار بغاء ودعارة، لكنها كانت دار رحمة أيضا، دار رعاية للفتيات المغرَّر بهنَّ، اللواتي تنقذهن أمك والبتول

من براثن الدعارة والضياع في الوقت المناسب، كانت أمي «الزاهية» بنت الفقيه «محمد الشرقي»، وأحد كبار قبيلة «الروافدة» في سهول أرض «الشراردة»، تعرف مصيرها، قالت لي يومًا: «يا عتيقة لم أهرب من الموت، بل خفتُ أن يضعف أبي رحمةً، ولم يكن لي إلا أخ صغير لم يبلغ الحلم، فيُعيَّر أبي، ويركبه العار، ويموت كمدًا وحزنًا... فقد كان يحبني حبًّا كبيرًا... وخفتُ أن يتصدَّى للأمر أخوالي أو أعمامي، فيركبه عاران، عار الجبن، وعاري..» لم يكن أمامها من حل لها غير الانتحار بعيدًا، حتى لا تفضح جدي وأخوالي وأعمامي وأهلي، بل القبيلة كلها، المسكينة كانت غِرَّة طرية، ساذجة... خدعها مَن أحبت في بلدةٍ تقتل مثلها ومَن في وضعها، وتُدفن سرًّا، ولا أحد يسأل عنها، لا أحد يسأل عن الغائبات، كل فتاة «باتت ولم تصبح»، لا يسألون عنها... فقط، يتلقى أهل الفتاة هدايا في اليوم الموالي من كل بيت في القبيلة، هدايا عن موضوع لا يُذكَر ولا يُناقَش، وفي اليوم السابع يدعون الأب والإخوة، ويقول شيخ القبيلة: «يا فلان بن فلان... بناتنا هن في البيوت أو في الحقول، خذ منهن واحدةً عوضًا لك عن طيب خاطر، اختر ما يطيب لك ولأهلك... ولتكن ابنتك... بالدم الذي أريق فغسل العار وحفظ فخر قبيلة «الروافدة» وإن أردت مصاهرةً... كلُّ البيوت تطمع في هذا الفخر والمجد..».

لهذا كان لا يتردد الرجال في قتل الفتيات اللواتي فقدْنَ عذريتهن، أو ظهر عليهن الحمل، أمي كانت صبية، لم تبلغ

بعد الخامسة عشرة، كانت طفلة، فغرَّر بها، شاب من البلدة مقيمٌ بفرنسا، أخذ منها عذريتها، وترك فيها بذرةً هي صك الحكم عليها قتلًا، فهربَتْ في أول حافلة متجهة للدار البيضاء، وكان مِن عادة البتول أن تزور المحطة وعينها على أمثال أمي، تعرفهن من سحناتهم ولباسهن ومن عدم حملهن أي حقيبة، فجاءت بها إلى دار ربيعة، أمك لم تكُ تدفع أي فتاةٍ لممارسة الدعارة... بل كانت تحميهن من مصير أسود قاسٍ، هي مَن سمتني عتيقة... وتفهم السبب... أي الناجية... دبَّرت لأمي عملًا في المرسى، فكانت تغسل عنابر مراكب الصيد، وتساعد في أي شيء، ولا يجرؤ أحد على التحرش بها، أو الإساءة إليها، فهي الزاهية التي تقيم في دار ربيعة، ومن يقيم عندها، يكون في حماها وحمايتها وحصانتها، وسهرَتْ أمك والبنات عليَّ في غيابها على العناية بي نهارًا حتى تعود أمي عند الغروب... بلغتُ سنتين حين أحبها بحار إنجليزي على باخرة تجارية إنجليزية... تزوجها ورحلنا إلى لندن...

ـ أذكر تلك المرأة الآن ورضيعتها التي سافرت إلى أوروبا، وأقاموا لها حفل توديع... لقد أقاموا عرسًا للزاهية والإنجليزي الذي كان ضخم الجثة كثَّ اللحية، وسمعتهم يقولون إنه أسلم، وضحكت الفتيات كثيرًا حينما أخذته ربيعة للختان، وعاد وجهه معتصرًا من الدم والخوف، كنتُ في العاشرة... أظنكِ الآن تبلغين الواحد والعشرين سنة...

ـ نعم... أنا لا أذكرك... كنتُ رضيعة لم تتجاوزي السنة...

ـ في دارنا كانت تأتي فتياتٌ ويلدن في دارنا ثم يختفين... كنت أظن أنهن عاهراتٍ والأولاد أولاد سفاح...

ـ لا... كلهن فتيات ونساء تم إنقاذهن في لحظة انهيار...

يا جلال... أمي مناضلة حقًّا وحقيقةً، بقدر ما ساعدت الشرطة في وأد حماس المعارضين، ودفعهم للصمت، ها هي أنقذَتْ جيلًا بكامله من الفتيات الضائعات...

أمي... سامحيني... أنا الذي ألتمس منكِ الصفح والغفران... لم تكن أمي حليفةً للشيطان، ولا خادمة لإبليس... أمي ضحية... أمي ضحية... لم تكتفِ بالبكاء والشكوى بل قامت بما يجب القيام به بصمت ونكران للذات... لهذا أمي لم تترك لا ثروةً ولا سكنًا ولا حليًّا...

ـ أتعلم أن أمك ذهبت لبلدة أمي، واستخرجت شهادة ميلاد لها في سرية تامة مقابل هدايا؟

ـ أمي رحمها الله كانت بطلةً... وأين أمك؟

ـ ماتت بالسرطان مؤخرًا... ماتت لكنها أفشت سرها، وطلبت مني أن أزور أمك ربيعة والبتول... للأسف فات الأوان... أفكر فقط الآن في زيارة البتول... تلك المرأة التي كانت تأتي بالفتيات اليائسات إلى أمك، فتنقذهن من الانتحار أو التشرد...

ـ أتعلمين... أنني كنت أكره أمي؟

ـ لا تكرها... الدعارة فُرضت عليها...

ـ كيف؟

ـ قالت أمي: إن أمك كانت تشتغل مع «الكوامنجي» عباس في الأعراس، لكنه تخلى عنها وعمرك سنة، وحرَّض عليها الجميع، فلم تجد عملًا، وظلت لشهور تتسول لقمتها ولقمتك، لكن هي حظها كان عاثرًا... لم تجد غيرَ الصدِّ والسبِّ والاستغلال الجنسي، بل وجدَتِ امرأةً قوادة، استغلت حاجتها بمدينة آسفي، وشغلتها بدارها في الدعارة، وتلك كانت بداية مشوارها... ثم نزحت إلى الدار البيضاء... بحثَتْ عن عمل فكانت سيرتها تتعقبها أينما حلت... فاكترت تلك الدار التي هُدمت اليوم، ووقع ما وقع...

كانت أمي تحب سرد هذه الحكاية وهي تضحك قالت إن الشرطة جاؤوا ليلًا، وأخذوها والبنات بما فيهم أمي والبتول كل الأطفال والرضع، كانوا سيأخذون الصغار إلى مأتم أو دار أطفال، والبنات وأمي وأمك والبتول إلى السجن، في الصباح أطلق سراحهم... زغردت البنات ورقصنَ في الدار الليلَ كله، وأمك الوحيدة التي كانت تبكي وتقول: «إيه... يا بنات سيكون ثمن حريتكم غاليًا... وثمن أن يعيش صغاركم في أحضانكم غاليًا... ولم تأكل الطعام يومين حتى خافت البنات عليها من الموت، فأرغمنها... ولم تعرف أمي السبب لحد الآن...

ـ وحدي أعرف سبب بكائها يا عتيقة، لكن لن أبوح لكِ

بالسبب، سأحتفظ به، أمي قديسة قدمت الكثير ليُغفر لها... أمي كانت قربانًا ذُبح في معبد القهر، ليعيش غيرها... أمي كانت تموت في صمت... لم تكن قاسيةً، بل كانت امرأة عابرة في زمن قاسٍ، لن أدفن ماضيكِ يا أمي... سيغدو فخرًا ومجدًا لي، ومَن أنا حتى أقرر الصفح عنك...؟ ما أغباني...؟ هي الأم يا عالم... هي أمي...

ـ لِـمَ تصمت في عقلي الآن يا جلال...؟ أين توارَيْتَ...؟

الحقيقة أننا لا نهدم أصنامنا بإرادتنا مترددة، ولا بأحلام مبعثرة، بل نهدمها حين نكون مستعدين، حينما تصير فكرة مختمرة في العقل، للتحول إلى عقيدة، والصدق هو معول الهدم، لا الحماسة الخرقاء، فقد نتحمس ونهد صنمًا في المساء وفي الصباح نصنع صنمًا آخر، لأن الصنم في رواسب عقولنا... فكرة راسخة... كم قررت وعزمت أن أبددكَ يا جلال ظلًّا وطيفًا تعبر عقلي وتفتي عليَّ فتواك، كنت أدرك أنك لا تصلح لهذا الزمن، كنتُ أدرك أنك لستَ الحل، بل أنت الأزمة والعلة، لكنني رغم ذلك ظللت أحنُّ لصوتك، أهدمك في المساء، وأرممك في الصباح... الآن... تُنهَى بضربة معول من صدق وإيمان... لستَ رجل المرحلة... لك الكلاب الشرسة تحرس فيلاتك، لك المسبح، والسور العالي، والحارس العجوز والبستاني الذي لا يأتي إلا في حضورك، ولك زوجة من زمن الحريم، لكنك شقي... لا ترى الوردة التي في الحديقة، ولا ترى الشجرة التي أزهرت، ولا تشم رائحة الياسمين الذي يزين شرفات فيلاتك، ولا ترى

الكلب الذي يحتاج إلى صديق لا إلى سيد، ولا ترى الزوجة التي تقتلها الغربة في دار باردة، بلا عواطف ولا مشاعر... غادرتَ البؤسَ وصنعتَ لنفسك بؤسًا آخر من خوف معجون بالرفاهية، وتوجُّس تجد طعمه في الهواء وعيون الناس، ستظل تدافع عن الحرية وحقوق المرأة، والعدالة والقيم الإنسانية في الصفوف الأولى للمسيرات، في حانةِ الكوخ وأنت تقرأ بيتًا لمحمود درويش، لكنك لن تدع الشمس تشرق على بيتك، ولا الضوء يعبر إلى عقلك... أي صنم تقدسه يا مسكين...؟

ضجَّ الزقاق بالصراخ، وارتفع الغبار كغيمةٍ داكنة، وعلا تصايُح الناس: «سقطت الشرفة... سقطت الشرفة... سقطت الشرفة القديمة...»

وأخيرًا... اخترتِ أيتها الشرفة القديمة بدارٍ عمرُها أكثر من قرنين، الموتَ بكبرياء بيدكِ على الانهيار بفؤوس زمن السلامي... لم تتحملي كل هذا الموت للقديم حولكِ، لم تتحملي العزلة والعجز أمام الهدم وتغيُّر عالم لم تعودي جزءًا منه... أنحني إجلالًا لهذا الانهيار البطولي... أنحني احترامًا لموتكِ قبل أن تطالك يد الزمن الأغبر

أسمع صوت عتيقة: «جلال... ماذا وقع...»؟

ـ أرد عليها ساخرًا: «انتحرت شرفة»...

ترد الصاع بصاعين «الله أعلم بعشقها، ربما عشقت نورسا فبات عند غيرها...».

17 ◀

خالتي البتول في غرفتها الشاحبة الضوء كالعادة - نعم خالتي- فدارها لا يدخلها ضوء النهار، وغالبًا ما تُشعل المصابيح الصفراء الباهتة كما كانت تفعل أمي، أحدهم أقنعهما أن الضوء الأصفر أقل تكلفة، لم أناقش الأمر مع أمي أبدا، وظلت مصابيح الضوء الأصفر تنتقل من دار إلى دار، والكل معتقد في انخفاض استهلاكها للكهرباء، لهذا أنا أشعر برهبة ووحشة من الأضواء الصفراء الباهتة، أخطو نحو غرفتها، أطرق الباب مفتعلًا السعال... لا جواب، لكنها موجودة حتمًا، فأنفاسها المتقطعة تعلن عن جسد عليل مثقل بالسنين والآلام، أسمع أنينها الخافت من ألم الروماتيزم الذي طال أطرافها وظهرها، تزحر عند كل حركة، وكل شيء تقوم به قربها، تطبخ وهي جالسة، وكل الأواني التي تحتاجها قرب يديها، لم ننتظر أن تأذن لنا بالدخول، فسمعها ضعيف، وزوجها الشيخ قلَّما يغادر الغرفة

المظلمة، فهو يظل يحتسي النبيذ حتى ينام، وإن جاع أتت له بالطعام بمشقة وهي تئن وتغمغم، لكن مشاعر الرحمة تغلبها على تذمرها، فتنهض وهي تتكئ على عكازها لتغطيه وتسوي له الوسادة والفراش، ـ هذا ما كانت تحكيه أمي لتبرز محاسن خالتي البتول الغابرة والتي لا تظهر للعين ـ كان زوجها الثمانيني بوشعيب طيب العشرة، بشوشًا هادئ الطبع، لم أره أبدًا غاضبًا، رغم إدمانه الكحول أحبه الصغار والكبار، أحيانًا... يجلس على كرسي أمام داره، ويحتسي الخمر، ويدفئ جسده بأشعة الشمس التي لا منفذ لها للدار، غير شتام ولا عربيد، ولا مجان فاحش، فقط يحتسي القدح تلو القدح، صامتًا، ينصت للمذياع، وإن جادت خالتي البتول، جاد على صغار الدرب مبتسمًا لفرحهم، تبرق عيناها حبورًا، أحبه الجميع نساءً ورجالًا وشبابًا، حتى دورية الشرطة حين تمر بدرب المخزن، لا تهتم لشأنه، بل مَن يعرفه من رجال الأمن، يترجل ويتجاذب أطراف الحديث معه، «الجن» تاجر المخدرات الصغير بالحي، يشترى له السجائر والجبن، وأحيانًا قنينة خمر، فهو مدمن حد المرض، كلما حاول الفطام من الخمر، فقد صوابه وغدا يرى في غرفته ما لا يراه العاقل، صراصيرَ كثيرة تهاجمه، جرذانًا تجري بين قدميه، وأفاع وثعابين تغلق عليه المنافذ وتتلوى حول ساقيه، ويسمع أصواتًا غريبة، كل هذا من صنع خياله واكتئابه الشديد بعد انقطاعه عن الخمر، أمي في أوج قوتها، ما انفكت تعاتب خالتي البتول على كل صغيرة وكبيرة، وتوصيها خيرًا بزوجها:

«دعيه يشرب... فهو مريض... عفا الله عنه... كوني «مرضية» معه... فسخط الزوج كسخط الوالدين...».

لم تسألني خالتي البتول وهي ترفع بصرها نحوي عمن معي، فقط قالت حين حدقت فيَّ بقلق وتعب:

ـ يا إبراهيم... قلت لك ما عندي وما أعرفه، وربيعة رحمها الله إن لم تلدك فقد ربتك أحسن تربية، كابنها... بل أكثر يا ابني... وأنا تبت منذ زمن... وخفت أن يظل في رقبتي ذنب ما وقع، وتمنعني أمي من عفو الله، فظلم الناس أصعب وأثقل يوم القيامة...

ـ يا خالتي... جئت لأراكِ فقط...

تلوي شفتيها ساخرة وهي تهز كتفيها غير مصدقة متوجسة:

ـ لم أكن أرى في عينيك غير السخط يا ولدي، وصرت تتجاهلني منذ كبرت...

ـ كنتُ غبيًّا... سامحيني...

ـ كنتَ لا تطيقني، وقد ربيتك كما ربتك ربيعة، واليوم جئتَ تقول ما تقول... لا مزيد لي من خبر يا ولدي... الخبر اليقين في عين السراح... سافر إلى هناك... لتتعرف على أهلك، ربما أمك الحقيقية ما زالت حية، أو ماتت كمدًا عليك... يا لقلوب الأمهات... سلني أنا... يا إبراهيم...

ـ ربيعة رحمها الله... هي أمي الوحيدة... دعيني أتمم

لك... لا أعرف لمَ احتفظَتْ بالقصة المؤلمة لنفسها، وأنتِ أقرب صديقة لقلبها... حتى أنا يا خالتي لم أجد أجوبة شافية لكل المواضيع.

ـ هل في قصة أخرى... يا ولدي...؟

ـ نعم... أمي لم تخطفني... أو بالأحرى... اسمعي سأحكي لكِ الأمر بالتفاصيل المملة...

ـ من الفتاة التي معك...؟

ـ ستعرفينها فيما بعد...

ـ اسمعي الآن...

ـ أجدك اليوم طيبًا... واستعادت عيناك ضوأهما الذي ضاع منهما في الزحمة يا ولدي... لم أعد أرى فيهما الغضب والكراهية... ذكراني بعينيك الصافيتين وأنت صغير...

أدنو منها، أُقبِّلها بين جبهتها، وألثم يدها، وأضع رأسي على فخذها، وأقول لها بصوت خفيض:

ـ دعيني أشم فيك رائحة أمي...

تزجرني بقوة وهي تضحك وقد وضعت كفها على فمها خجلًا:

ـ أنهض عني... فرائحتي نتنة... ولم أستحم منذ أسبوع، ويغلبني البول... انهض يا أحمق...

ـ سأحكي لك القصة بتفاصيلها المملة...

تمددت بعدما شعرت بألم في ساقيها، وغدت تدلك ركبتيها بيديها، فاقتربت منها عتيقة، وطفقت تدلك لها الساقين بحماس ومهارة، وخالتي البتول منتشية مسترخية تتفرَّس في وجه الفتاة وعقلها حتمًا يتساءل عمَّن تكون

وضعت لها عتيقة وسادة تحت رأسها والابتسامة لم تفارق شفتيها وإن لم تنبس بكلمة واحدة... الغريب أنني ما عدتُ أشم فيها تلك العفونة التي كانت تتسرَّب إلى روحي قبل جوارحي، ولم أشعر بظلمة الدار ولا بروائحها التي كانت تحيل خيالي على عالم الدعارة والبغاء، ما إن غسلتُ قلبي وصدري من الضغينة والكراهية حتى غسلتُ عقلي من الروائح التي علقت به منذ الطفولة، لم أكن أشم في الحقيقة تلك الروائح، بل كان عقلي المضطرب وروحي المتشظية، يقلبان في رواسب طفولتي، فتنهض تلك الروائح من الحفر عميقًا، حتى تلك الظلمة التي اكتنفتني وأنا أزور دارها لأول مرة تلاشت، كأن العتمة كانت في قلبي، وكنت أنشرها حقدًا وغضبًا، نظرَتْ إليَّ وقالت وهي تضرب كفًّا بكفٍّ:

ـ صمت يا رجل... أنا أسمع...

سمعت خالتي البتول مني الحكاية كلها، وعلمت بأدق التفاصيل، وهي مشدوهة تهز رأسها أسفًا وتميد حسرةً، كأنها تبرد نارًا اشتعلت بين ضلوعها، أقف أحيانًا عند حدث مفرح، فتنفرج أساريرها وحين أقص ما يفتت الحجر ويفطر القلب،

تنقبض أساريرها، وتتجعَّد جبهتها، وتتعتم نظراتها، وتلطم خفيفًا بأصابعها المرتجفة خديها بوجوم وعبوس، تتعجَّب لكل حدث غريب لم تعلمه دهشةً وعجبًا، يخيم القلق على محياها أحيانًا وتتسلل الحسرة والخيبة إلى تعابير وجهها، فيخفت وميض بريق عينيها، ترمي لنفسها في لحظة انفعال جارف بطوق النجاة وسط يم المشاعر المتناقضة، فتستغفر الله، وتحمده على الستر وتدعو بحسن الخاتمة متنهِّدة بقوة، باحثةً عن مزيد من الهواء شهيقًا عميقًا، وتردد وهي مطرقة الجبين ألـمًا وحزنًا: «المسكينة... آه... كم كابدْتِ يا حبيبتي... والله ما كنت أعرف كل الحكاية... ظلمتُها والله... وظلمتك يا بني... سامحني... سامحني...».

ترتمي في حضني منتحبة، لاطمة باكية صارخة: «يا ويلي... يا ويلي...».

ثم تضمها عتيقة وتضع رأسها على صدرها وهي تردد بحنو: «لا عليك... يا خالتي كل ما كُسِر جُبِر... وأنت لم تكوني على علم بما حدث...».

صمتت مدة، وقد سيطر عليها حزن عميق حتى اغرورقت عيناها حين علمت قصة زواج أمي من أبي حمدان، كادت أن تلعن أبي وتشتمه بفحش وبذاءة على ديدنها، لكنها لجمت غصبها وقوَّست حاجبيها، وبدل أن تلعنه لعنت الأيام القاسية السوداء...

دار البتول كنت مظلمة وعفنة، لكني اليوم رأيتها بنظرة أخرى، رأيت العفونة سطحية تُرحَض، والروائح القديمة النتنة تتغير بتغيير الأثاث، وصباغة الجدران، وفتح نافذة على الزقاق تسمح لأشعة الشمس بطرد السموم والصنان والعفن، وفي لحظة حنين اشتقت إلى رقية بنت علوان الأقرع، وتصالحت روحي مع عطره، قررت في خاطري أن أتفرغ لإصلاح دار البتول وصباغتها، وفتح نافذة لها على الزقاق، فالبتول في مقام خالتي، وما الرائحة العفنة في ثيابها إلا من مثانٍ ضعفت فصارت تغلبها، والعمش المستقر في زوايا عينيها هو حتمًا عمش من اختلال وظيفي لهرمها.

ساد صمت في الدار، كسره سعال زوجها الحاد، وتشغيله المذياع، وقالت وهي تمسح دمعها بكميها حتى قامت عتيقة وطفقت تمسح لها الدمع بمحارم معطرة مبللة، شعرت خالتي البتول بارتياح وهي تمررها على وجهها، فصاحت: «الله... تغسلين إن شاء الله بماء زمزم يا بنتي...».

ثم أردفت...: «لقد افتروا عليَّ بالبلد بالهضبة الحمراء، قالوا: تنكرتُ لربيعة، وتبرَّأتُ منها وحمَّلتُها مسؤولية هربي... والله يا بني... ما قلت هذا... الكلاب حاروا بين هداياي وسمعتي، فأحلوا الهدايا بأن جعلوني مظلومة وغررت بي ربيعة... كذبوا والله... ربما ماتت ربيعة ولم تصدق أنني لم أقل ما زعموا... قلتُ لها يومًا... نرحل معًا وأوجههم... عيناي في عيونهم... المنافقون... دفعوا بناتهم للدعارة وألفوا المال الكثير السهل بلا

حرث ولا زرع ولا حصاد، حتى خملوا وثخنوا وسمنوا كالعجول، ويقولون لولا ربيعة ما فعلت بناتنا ما فعلن... المنافقون... يقفون منذ شروق الشمس أمام مركز البريد لسحب حوالات نقود وسخة... تأتيهم من البنات اللواتي جُلهنَّ عاهرات، وقلة منهن يشتغلن في معامل النسيج، ربيعة رفضت أن أواجههم... أشاحت عني بوجهها وقالت إنها ليس لها الوقت والصبر لمثل هذه التخاريف... الحقيقة يا بني، أن ربيعة رحمها الله، طردها عباس من «رْباعةَ» حينما اختطفتكَ وكان البغل خائفًا جدًّا، وكانت قد غابت قبل ذلك سنةً، هاربة مما عرضه عليها الكوامنجي عباس من ممارسة البغاء في الخيمة مع طالبيه مقابل المال، فرفضت حتى جاءها جبار من جبابرة البادية في عرس من الأعراس، وكان رئيس جماعة بالبادية لا يُردُّ ولا يُصدُّ، أجلف وسخ، فاستغفلته وهربت إلى مدينة أزمور... فانقطعت أخبارها لما يقارب سنة حتى عادت لم نعرف أين كانت... وكان الناس في الأفراح والأعراس يسألون عنها، فعاد عباس لعرضه القديم. فرحلت، واستقرت بمدينة آسفي. وهناك بدأت الحياة الجديدة في دار قوادة... ثم اكترت دارًا قرب «الصقالة» المطلة على البحر، ولحقتُ بها وصرنا نعمل معًا لحسابنا... وأنا عشت معها كل هذا الزمن بمُرِّه وعلقمه... لم أفارقها إلا عامين، حين تزوجت من العسكري وأنجبت ابنتي التي ظلت مع أبيها، وعدتُ عندها بعدما طُلقت ولم تعلمني بالحقيقة... والله كنت أظن أن تلك المرأة في عين الراعي هي أمك... ما

العيب لو أعلمتني أنا بالأمر...»؟

ساد صمت رهيب، لم أجد ما أبرر لها به صمت أمي وكتمانها سر زواجها وإنجابها... غدت العجوز منهكة تنقل نظرات الحيرة بين وجهي ووجه عتيقة، ثم توقفت عندها، تتفرَّس في ملامحها، وقالت بعدما شربت كأس ماء وأعادت ربط عروة مشد رأسها، وغطت جسدها بلحاف كأنها شعرت بالبرد:

ـ وأنت يا ابنتي من أنت...؟ سامحيني نظري ضعيف وقد هرمت..».

ـ قالت لها عتيقة وهي تبتسم علها تخفف عنها خيبتها وهي تربت على صدرها:

ـ يا خالتي... ستعرفين بعد قليل من أنا... أما ما فعلته خالتي ربيعة فربما كانت تحمي الرجل... والد إبراهيم... فقد أحبته...

هزت البتول كتفيها بتذمُّر وقلة صبر وهي تغمغم وقالت وهي تلوي شفتيها:

ـ لا... لا... هي هكذا كانت بئرًا عميقة. على كل حال رحمها الله... وأنتِ يا ابنتي من أنتِ...؟ لم تجيبيني بعد...

أشرق وميض فرح في عيني عتيقة وهي تقول: «أنا عتيقة... بنت «الزاهية»... أتذكرينها...؟ مضت أكثر من عشرين سنة... وعدتُ لأراكِ وأرى خالتي ربيعة لكن الموت سبقني.

لطمت خالتي البتول من الذهول صدرَها، وجحظت عيناها، واغرورقت... غلب أنفها مخاط جارٍ، واضطربَ جسدها، فاسترجعت بسرعة دون تردد ولا ثقب في الذاكرة الماضي، وقالت وهي تنتحب وتحاول الوقوف لكن ساقيها لم يحتملا لا الخبر ولا البدن السقيم: «العزيزة ابنة العزيزة... عتيقة بنت الزاهية الشرادية... التي أتيت بها من محطة كراج علال، الحمقاء كانت تنوي قتل نفسها... في حضني يا ابنتي في حضني..».

بكتا معًا بكاءً حارًّا حتى أبكياني، عتيقة في حضنها تضمُّها بقوة، أغمي على خالتي البتول، فرشتها بالماء فاستفاقت وهي تقرأ عليها الفاتحة وتبسمل، وحين استعادت وعيَها وصوابها من هول المفاجأة، سألت عن أخبار أمها الزاهية الشرادية، فانتحبت هذه المرة عتيقة ولم تطق صبرًا وقد جاش صدرها حزنًا، وهي تنعي موت أمها، وعلا النشيج والمرأتان تقمعان النحيب... مما أقلق العجوز في الغرفة الأخرى، الذي أغلق المذياع، ويبدو أنه أرهف السمع ليتحسس ما يقع، ولم يكن يعلم بوجودنا، ثم هرول نحوها مضطربَ الخطو ليس من سكر، فالسكر لا يُفقده عقله ولا توازنه، ولكن من فزعه وضعف بِنيَته، دخل علينا وعيناه جاحظتان وأصابعه ترتجف، حتى كبا على العتبة مرددًا بوهن وضعف... زائغ البصر: «ما بك يا البتول... ما بك... ما بك...»؟

أسرعت إليه عتيقة، فساعدته على الوقوف وهو يرتعش

خوفًا على زوجته، ويحملق في عتيقة، ثم صوَّب بصره نحوي مرتبكًا وما توقف عن السؤال مرتبكًا: «هل هي بخير...؟ ماذا وقع لها...»؟

فضحكت عتيقة حتى بدت نواجذها وهي تقول وأصابعها على فمها: «يا عمي... أتخاف عليها... أعشقٌ هذا...»؟

فردَّ عليها متعجبًا من سؤالها وبحذر وهو يتلمس مجلسه على سرير خالتي البتول، ويربت على ظهرها: «طبعًا... أخاف عليها... البتول عمري الذي كان وما تبقى منه... أخذتني من الشارع منبوذًا مدمنًا وقبلت علي وتزوجنا... وما زلت مدمنًا على الخمر... تتفهم حالي ولا تنغص عليَّ حياتي، تقاسمني ما تطبخه، وتشتري لي علبة التبغ دون مَنٍّ... وإن مرضتُ تبقى بجانبي حتى أستعيد صحتي... من لي غيرها في هذه الدنيا القاسية...»؟

ترفع خالتي البتول عينيها إليه وقد انفرجت أساريرها وتهلل وجهها وتقول معاتبة: «نسيت ابنتي وزوجها اللذَيْن يعاملانك كأبيهما»؟

يهز كتفيه مبتسمًا مرددًا: «صدقتِ... لكن لا أحد يحل محلك يا قلبي».

يرتفع الضحك عاليًا أمام ذهول بوشعيب الذي ظل ينقل بصره بين الوجوه محملقًا، فاغر الفم، فلم يجد بدًّا من الانخراط في الضحك تداعيًا عجيبًا حتى قهقه، فتوقف الجميع ولم

يتوقف هو حتى شرق وسعل سعالًا مريرًا هزَّه هزًّا، وخالتي البتول تسقيه ماءً وتُبسمِل ويدها على رأسه.

بعد لحظات ضجت الدار بصخب وضحك طفلين، يقفزان هنا وهناك، بنت وولد، متقاربان في السن، ربما غَالَت أمهما البكرَ - أرضعته وهي حامل-، يبدو أنهما لم يتجاوزا، الخامسة ربيعًا، ولجا بضوضاء تسبقهما قهقهات طفولية جميلة، فارتميا في حضن خالتي البتول وهما يقبلانها ويرددان «جدتي... جدتي..» ويهتزان ويقفزان كفراشتين بهيتين... ما أروع الطفولة... ثم دخلت امرأة في الثلاثينيات، قبَّلت خالتي البتول بحرارة، وسلَّمت عناقًا على عتيقة وإن لم تكن تعرفها على عادة النسوة هنا، ليظهر بعد ذلك رجل في الأربعينيات، ملتحٍ بهيَّ الطلعة، بشوشًا، تسبقه ابتسامته، بكسوة عصرية، وربطة عنق، ويضع نظارتين طبيتين، سلم وقال وهو يحل خيوط حذائه: «يا حماتي... تأخرنا عليكِ... أين عمي بوشعيب...؟ سامحيني شغلتنا الحياة عنك..».

ردت عليه وهي تلوح بيدها: «بوشعيب في غرفته... والحال هو الحال..».

قهقه الشاب وقال: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ... أين هو جئته بما طلب... نقانق وأرز..».

أمام ذهولي يلج الرجل غرفة العجوز، تدرك خالتي البتول أنني في حيرة، فتقول: «هذه ابنتي رقية... هل نسيتها...؟

كانت تزورني من حين لآخر... لما طُلقت من زوجي الأول، العسكري... عاشت مع أبيها... وتزوجت «سي السماحي» وهو طبيب... ورجل طيب... وتزورنا من حين لآخر..».

انتعل زوج رقية نعلًا بلاستيكيا ثم أخذ ماءً، وتوضأ، رأيته يبحث عن مكان في الفناء ليصلي، فقلتُ له بعفوية ندمتُ عليها: «وهل الفناء طاهر»؟

ضحك وردَّ عليَّ: «طهِّرْ قلبَكَ وصلِّ حيثُ شئتَ...».

أقسم الطبيب ألا نغادر حتى نتقاسم العشاء، طبخت زوجته، واعتزل بوشعيب الجمع، ولم يظهر على سي السماحي أدنى استياء أو تذمر... بل ما إن تحلَّقنا حول المائدة للعشاء حتى نهض وخدم الشيخ في غرفته، فأخذ إليه الطعام، والماء والمنشفة، وكان يقرب اللحم من حماته، ويتخير له قطع اللحم، بينما زوجته منشغلة بإطعام الصغيرين، أعجبني، فتذكرتُ جلال... طلبت هاتفه، وتواعدنا أن نلتقي مرة أخرى...

ومن توجُّسي مرَّ بخلدي خاطر ريبة وشك وناجيت نفسي: «من أدراني أن الرجل لا يمثل علينا دور التقي المنفتح... البيوت أسرار... ربما هو أيضًا يعنف زوجته، وخارجَ البيت يظهر لنا أنه يكرمها كما يكرم حمويه... ربما هو نسخة معدلة عن جلال... فمن يطيق أن تكون له حماة عاهرة سابقة، وحمو لا تفارقه الكأس...؟ لا... لا... فعلا هناك مفارقة... لكن ممكن أن يكون الرجل الطبيب كما يبدو عليه بلا تزييف... مؤمن...

ملتزم... لكنه منفتح ومتفهم وغير منغلق... زوجته لا تضع غير المنديل على شعرها... وتعشت بيننا، وجلست معنا عتيقة وهي سافرة..».

لم ينقذني من توجسي غير عبارة عابرة سقطت في أذني وأنا أهم بمغادرة دار خالتي البتول آتية من غرفة العجوز: «أحسنوا الظن بالناس... فلا تعلمون هل خاتمتنا أحسن من أوائلنا...؟».

18 ◀

ها نحن في أوج فصل الربيع نرتقي الهضبة نحو الأرض الحمراء، كوكبة من السيارات، تثير العجلات الغبار وراءها، فتثير معها الفضول، وتستفز الكلاب الجائعة التي تعدو نابحةً وراءنا حتى يغلبها التعب، فتكتفي بالنظر لاهثة بمشقة، لا أثر لنسائم الربيع، لا في الحقول الغارقة في البؤس، ولا على الأشجار القصيرة التي أنهكها الحطب وتجاسُر قطعان الغنم من شدة الجوع، السماء صافية زرقاء ولا تحلق في أجوائها غير الغربان والصقور المتربصة بالجيف، قلَّما تحل السيارات هنا، عدا يوم السوق الأسبوعي، أو حين يأتي المهاجرون والمهاجرات في أيام عيد الأضحى من المدن، تحملهم سيارات الأجرة من نقطة الانطلاق البعيدة إلى هنا مقابل سومة متفق عليها، وغالبًا ما تكون سخية، تشجع السائق على تحمل مشاق الطريق غير المعبَّدة، أما أكثر البنات فيعُدن في رمضان، حين

تبور تجارة الجنس، وتغلق الخمارات والعلب الليلية.

نمرُّ على التجمعات السكنية، فتتطلع لنا العيون والقلوب، بين الرهبة والفضول، الأطفال حفاة أو شبه حفاة، بطونهم عارية، منتفخة في أجساد ضامرة، ورغم ذلك يبتسمون ويلوحون لنا، البوادي النائية بيوت بئيسة هنا وهناك أحاط بها شوك الصبار أو سياج من القصب، نعجات هنا وهناك تسرح حرة، منهكة من الضعف، والأرض غير خصبة، وتربتها بيضاء أقرب إلى «الجبس»، شجيرات تقاوم قلة المطر، وصلابة الأرض، بين الصخور الكبيرة، اتخذها الشيوخ مجالس يبددون تحتها الفراغ، بالتدخين ولعب الأوراق، يمر الزمن ثقيلا هنا، نراه في العيون عابسًا، وفي الحياة اليومية للناس ثقيلًا كاتمًا للأنفاس.

من حين لآخر تتشكل زوابع على غِرة، فتثير الغبار الكثيف بقوة، فتحمل الرياح الجامحة الأتربة والأزبال وما على السطوح من سقط المتاع الخفيف، والبراميل والقدور الطينية التي تتشظَّى وتتقاذف شظاياها الرياح، فيهلع الناس، ويتفرقون خوفًا وتجنبًا لاصطدامها، الزوبعة العابرة قوية تحيل الهضبة الحمراء إلى عالم غير مرئي مخيف، تتطاير في سمائه نباتات شوكية جافة. تهدأ الزوبعة، أو تمنحهم هدنة مؤقتة، تظهر العيون المتعبة من جديد، وتستمر الحياة الرتيبة، كأن شيئًا لم يقع، بل يتصايحون في ضحك وقهقهات وهم يحصون الخسائر.

ويعود الرجال إلى كسلهم بخمول يتمططون ويتثاءبون، منشغلين بتعقب الأنفاس والظلال والحركات والسكنات، وبجمع الحكايات ونسج القصص، ونشر الأخبار، الرجال منتشرون هنا وهناك على سفح الهضبة، أكثرهم شيوخ كأن البلد بلا شباب، رحل عنها السواعد، إلى المدن طلبًا لحياة أفضل، ولنعيم وجدوه جحيمًا، فخجلوا من العودة خائبين، فلا أرض تُزرَع إلا حسب جهد الشيوخ، وجماعات أخرى من العجزة والمرضى من عجزوا عن الحركة وارتقاء سفح الهضبة، اختاروا ظلال السقائف، فمدوا أجسادهم النحيلة على حصائر يحتسون الشاي طول النهار، والزراعة هنا مرتبطة بما تجود به السماء، وأمطار هذه السنة كثيرة لكن مضطربة التوزيع على مدى السنة، حرثوا وزرعوا ما قدرت عليه السواعد المنهكة للشيوخ وساعدتهم النساء، وها هم ينتظرون زخات آخر الربيع علها تعيد البهجة للقلوب والأرواح، بعضهم لا يجد حرجًا في الجلوس على الطرقات، وتعقب السابلة بعينيه دون حياء ولا حشمة، بل قد يغدو العابر أو العابرة موضوع حديث طويل مع آخر ينضم إلى الجماعة... الكل كأنهم يحرسون بلدتهم البائسة من جميع مداخلها، وليس لهم ما يُسرق غير بهائم ضامرة، وأنعام جائعة، من قلة المراعي وضعف الغطاء النباتي، وحدهنَّ النساء يحرضن ويغسلن الملابس بحماس قرب الآبار بصخب وتصايح مُنفِّسات عن أنفسهن قهر الرجال وظلام البيوت، ويضحكن لعبورنا فينتصبن واقفات وهن يتصايحن

مخمنين من نحن، ثم يتوقفن عن العمل، ويتعقبننا رفقة صغارهن، ورُضَّعهن الملتصقين بأثدائهن، النساء مكتفيات بمناديل تغطي رؤوسهن، والوجوه المتعبة، الغارقة في سمرة الشمس عارية، لا تخفي حزنًا ولا فرحًا... لكنهن يبتسمن في وجوهنا، ويلوح لنا الصغار، وهم يركضون وراء السيارات ببراءة وعفوية غامرين... من أين يأتي كل هذا الفرح؟

أين الربيع؟ قالوا لنا: أن فصل الربيع حل... يا سادة هنا فصل الربيع مجرد حلم أو خبر من الماضي... ربما مرَّ الربيع في زمن ما من هنا، وغادر إلى أرض غيرهم... ربما لم يكونوا مستعدين للفرح... ربما كانوا مختبئين وتركوه يعبر في صمت... الربيع لا يحب الوحدة... الربيع لا يرقص وحده...

حينما قلت لجلال قبل أسبوع: «سأذهب لعين الراعي... أحضر أبي وأصالحه... ونزور قبر أمي معًا... في مرقدها بالهضبة الحمراء، وأقيم ليلة صدقة... يتلى فيها القرآن... ونطعم الناس والصغار..».

قال وهو يرمي بدوائر الدخان في وجهي: «يا أحمق... دع الأمر كما هو ستحيي القديم بآلامه وعلله، يا متخلف... أي ليلة صدقة هذه ستقيمها لأمك...؟ هذا تخلف..».

«يا جلال... سامحني... سأقول لك كلمة، أنتَ علماني... يساري... وشيء آخر تخلطه في أقوالك لا أستطيع تصنيفه، أنت ربما ملحد، حين ماتت أمي... قلتَ لي: «لترقد روحها في

سلام»... لا أفهم عن أي روح تتحدث... هل الروح التي زرعها الله فينا، أم روح أخرى تعلمها أنت العلماني والملحد...؟ أنت لا تصلي... لا يهم... حتى أنا لا أصلي... أنا متقاعس فقط، أنت تنكر الصلاة... تعتبرها طقسًا بائدًا... خرافةً... فولكلورًا... وأنت تقول حين تنتشي: «إنك ترفض السجود للفراغ..». صراحةً يضرني هذا القول، وأصمت... أقول حتى لو كان جلال على حق، عليه ألا يهزأ من عقيدة الآخر، لا أناقشك فكركَ ولا عبثكَ، حين أردت تكريم روح أمي بليلةِ تلاوة القرآن... قلتَ هذا تخلف... وصمتُ... لم أفهم شطحاتك هذه... لا يهم... كن ما شئت... أتفهمك أحيانًا، وأحترم مرجعيتك، لكني مسلم ومؤمن وحداثي، وأمي ستموت فعلًا وينقطع حبل علاقتها بالأرض، إن انقطع عنها الدعاء والصدقة عنها، تصف الأمر تخلفًا... هكذا نحن... وذاك رأيك... كل العقائد السماوية وغير السماوية حتى الوثنية والمجوسية والهندوسية، يحترمون الموتى... يحترمون العالم الآخر... كل منا يراه حسب عقيدته، لكن لا أحد وصفهم بالتخلف، وأنت كباقي الملحدين في بلدي... ستموت يومًا... لن تترك وصية بألا تدفن في مقابر المسلمين وبألا تغسل ويصلى عليك، كلكم مزيفون، أنتم أكثر إيمانًا من المؤمنين... في لحظات الرحيل... تصمتون... لا تقولون شيئًا... ربما تتصالحون مع السماء في الخفاء، ويركبكم الاستكبار والكبرياء وتُخفون الأمر... ربما فيكم مَن يخجل من التعبير عن إيمانه استكبارًا لا اعتقادًا... كلكم تموتون وتُغَسَّلون وتقام عليكم صلاة الجنازة...

والدعاء والبكاء والناحبات، وتُشيَّعون في مواكب إيمانية إلى المقبرة والكلُّ يُكبِّر ويوحِّد... وتُدفنون في مقابر المسلمين... ربما أنتَ أكثر تزمتًا من المسلم الوسطي العادل المتزن، فها أنت تتزوج بطريقة من القرون الوسطى، تبحث عن العفة، ولم تكتفِ بذلك بل أحطت زوجتك بسور عالٍ، عليه كلب شرس لا يتوقف عن الهر والنباح والعويل، وخوفك الغريب الذي لا أفهمه دفعك أن تختار حارسًا عجوزًا، كأنك تخاف الخيانة، كأنك غير مقتنع بشيء ما... أو لا تثق في رجولتك... أعتذر... في فحولتك، لا أفهمك... العلة ليست في اليسار كفِكْر ولا في الحداثة ولا في العلمانية، ولكن الخلل فيك... في تفكيرك، العلمانية يا زميلي... ليست انحلالًا خلقيًّا ومواخيرَ وخمرًا وتيها وضياعًا، لا... لا... العلمانية وجه من وجوه العقلانية... هي تعاقد بين المجتمع والحاكم على أسلوب الحكم الذي لا يكون فيه الدين شأنًا جماعيًّا... بل شأنًا فرديًّا، العلمانية تعني قِيَمًا كونية، كالعدالة، والعدل، والديمقراطية، والمجتمع المدني، والتنمية، وتطوير التعليم، والانتصار للعقلانية... والتسامح... ولا أراك متسامحًا وأنت تسخر من شعائر الناس، لا يمكننا أن ندَّعي العلمانية ونحن غارقون في أساطيرنا الخاصة... أما العقلانية فليست ضد الأصول... الأصل ليس أفقًا للبناء، بل هو عملية تفكيكية لفهم مسار الحياة، والوقوف على التحولات والقطائع... سامحني... لن أرفع لك النخب الليلة...».

لم أقل هذا الكلام في خاطري... بل سمعه مني مباشرةً بقوة

وقسوة وشدة... بحماسة نارية لم أعهدها فيَّ... وأحسست براحة غريبة، للأسف كأنني أطلقت عليه رصاصة، وها هو أمامي يترنح ارتباكًا...

هذه المرة، كنتُ قربه على المشرب، ارتعشَتْ يداه حتى أسقط كأسه، ونظر إليَّ نظرة واهنة، وهو يلوي شفتيه ذعرًا، أي نعم، رأيتُ الخوف في عينيه، ورأيت الضعف في جسده، اضطربَتْ ساقاه، خطا خطوةً مرتبكة ضعيفة، كاد أن يسقط، ساقية المشرب نادية، أسندته أجلسته على كرسي قصير، واتكأ بظهره على عمود، وسرح بنظراته في السقف... لأول مرة، لم أصمت... لأول مرة عبَّرت عن رأيي... لكن للأسف أصبتُ الرجل في مقتل... ربما أنزلته من عرش الخطابة هذه الليلة، لكن لن يطول الأمر، سيُتوَّج في أقرب وقت وهو يوزع القنينات ويطلب الطعام وعلب السجائر.

في غيابي سيقولون: إني كلب ابن كلب، وإني غبي... لا أفهم... تطاولت على سي جلال. سيقولون: إني حفظت بعض الكلمات وها أنا تقيَّأتُها عليه. سيقولون: إنني جاحد للخير، وعضضت اليد التي أطعمتني، وجدتُ لي شغلًا في مكتب محاماة، ورددت له الخير شرًّا. سيتطرف أكثر حواريه، ويطلبون تشريدي ويصرون على طردي من مكتب المحاماة...

تلك الليلة خرجتُ أجرُّ ظلي وعيون المزيفين والمداحين تكاد تختطفني حقدًا ونقمةً، ومبايعة لرب نعمتهم الخمرية،

وحدها نادية الساقية، خطت نحوي متهتكة وهي تهز رأسهاسأسهأ وهمست: «كنت أعرف أنك أنتَ الفيلسوف الحقيقي... صمتك... يفتنني..».

أبتسم في وجهها، وأختفي في زقاق مظلم... أي... نعم... لو أنصتُّ لجلال... ما ذهبتُ لأرض الغريب... ما صالحت أبًا أكبرُ رجائه كان أن أبتسم في وجهه.

عند أبي... بتُّ ليلتين، أشمه ويشمني، وكشف لي عن كل خرائط أصلي، عرفت الأعمام والعمات، وصار لي شجر ونخل ورمان وكروم وأنساب، وبئر ماء، ونصيب من البؤس أفتخر به، فهم مني وأنا منهم، وصارت لي قصص قديمة وأخبار عن قبيلتي... صارت لي قبيلة... سأحملها دومًا في حقيبتي أو أثرًا في جواز سفري حين تشتد الأزمات، وتسأل الخرائط عن أهلها.

موكب سياراتنا يخترق الهضبة الحمراء، نتوقف وسط البلدة، تتطلع العيون إلينا، وأرى خليطًا بهيًّا من البؤس والفرح في الوجوه والسحنات، تخرج النساء ليستطلعن الأمر، بعض الشاب اختفوا ظنًّا منهم أنها حملة أمنية تطهيرية للدرك، وكانت لعتيقة سيارة سوداء رباعية الدفع، بعض الأطفال يتعقبوننا بصخب وتصايح شبه عراة حفاة ويعودون لأسرهم بالأخبار، ظهر خالي ميلود ومعه خالي الصغير مبارك، وقد علموا من الزوار خبرنا، فاستقبلانا أعلى الهضبة مرحبين بحفاوة، قال خالي ميلود بزهو: «مرحبا بالأحباب... مرحبًا...

والله نحن في عيد اليوم... رؤيتكم عيد..».

غادر الكل السيارات، والد عتيقة بالتبني الإنجليزي مستر «مارك»، كان قصيرًا سمينًا، متدلي الكرش، مدور الرأس، كث اللحية البيضاء، عيناه ضيقتان زرقاوان، ترجَّل عن السيارة، وتمشَّى بكل حريةٍ وحبورٍ بين الأطفال، وحدسوا أنه أجنبي، فمنح الحلوى والشوكولاتة، وأولياؤهم يضحون، لحقت بنا سيارة جوزيف وكاميليا، لم ينزلا وظلَّا يراقبان الأمر من داخل السيارة، خالتي البتول - وقد كانت معي في السيارة رفقة عتيقة- نزلت بمشقة وعتيقة تسندها، بل تسابق رجال القرية على مساعدتها، وأتوا لها بكرسي، جلست وهي تهمهم: «يا إبراهيم، أنزل أباك... أينك يا سي حمدون..؟» أنزلت عتيقة أبي أيضًا بمساعدة مارك، وكنت أسنده، فأتت له رقية بكرسي... آه... يا أهل درب المخزن... لن تتعرفوا بسهولة على رقية بنت علوان الأقرع، سمنت، واكتنز صدرها، وامتلأت عجيزتها، كيف؟ لا أعلم... جاءت في أحلى زينة، كحَّلت العينين، ووَّردت الخدين والشفتين، غدت مثيرة، والطاهر زوجها ابن خالي بجانبها، ينفخ صدره، ويصافحني بحرارة، رقية هي رقية... ما كاد ينزل الجميع، حتى صُفَّت الموائد وأعد الشاي وصحون الحلوى والرغيف والزبدة...

قالت خالتي البتول هامسة في أذني: «يا إبراهيم... البادية لاقت ببنت الأقرع... انظر... امتلأت لحمًا وصارت لها عجيزة». ضحكتُ وأنا أضع يدي على فمي، فأردفت: «الأرض الصلبة،

ينقصها الماء والسقي والعناية والدفء، لتُخرج أزهارها وثمارها... اعتنِ برقية..».

فهمتُ الرسالة يا خالتي...

تعرَّف خالايَ على الجميع، وبكيا في حضن أبي كما انتحب هو أيضًا كأنه رأى فيهما صورة أمي... وبكت رقية وهي تعدد مناقب المرحومة... وللغرابة... بكى «مارك»... أكان يحتاج هو أيضا للبكاء؟ قال لعتيقة: «تذكرت الزاهية»... فأجهشت عتيقة بالبكاء... كلٌّ يبكي ألمه وحزنه.

بعد لحظات، توقفت سيارة لم تكن معنا في الموكب، تطلعنا جميعًا إليها، فإذا بالسائق هو سي السماحي صهر خالتي البتول، وبجانبه جلال، وعلى المقاعد الخلفية جلسا الصغيران والشيخ بوشعيب..» حين رأيته الشيخ خفت أن يكون ثملًا، فهو لا يتخلَى عن قنينة النبيذ، بدا متعبًا ترتعش يداه، عاتبت سي السماحي فقال متأسفًا: «أصرَّ عليَّ الرجل يا إبراهيم حتى أشفقتُ على حاله... أما من ناحية الخمر... فلم يحتسِ كأسًا واحدة اليوم والله... عاهدني على القرآن أن يصبر اليوم... فقط يداه ترتجفان، وهذا أمر متحكَّم فيه... وقد أعطيته مهدئًا عضليًّا... لا تخف... ومعي حقنة أخرى لمثل حالته..».

قال جلال: «سامحني... كنتُ أحمق... هدمت الأصنام وصنعت لنفسي صنمًا آخر... أعبده في سري... لستُ ملحدًا يا

صديقي... أنا ضائع... أنا تائه..».

ثم ارتمى في حضني وبكي بكاءً مرًّا حتى تداعت عيناي لنحيبه دمعًا رقراقا وبكيتُ كطفل صغير...

«لا عليك... يا صديقي... لا أحد فينا كامل... خُلِقنا ناقصين... لنعبد الكامل، أو نمضي العمر فكرًا أو إبداعًا بحثًا عن الكمال..».

أنزل جلال من صندوق السيارة الخضر والفواكه والزيت والسكر والشاي والصودا، وهمس في أذن خالي ميلود وهو يحاول دس أوراق مالية في جيب جلبابه الثقيل، وهو ممتنع كاره بأنفة وعزة نفس، بعد كرٍّ وفرٍّ وخالي يرفض حدَّ الإفلات من قبضة جلال الذي يعدو وراءه غاضبًا، أقنعه بعتاب طويل وأنا أرى حركات خالي التي تعكس عدم رضاه، حتى لانت نفسه، وطاب خاطره، فما هي إلا لحظات حتى أتى خالي بعجل كبير سمين وذبحه، وهو يردد: «الله أكبر لله... صدقة عن أختي ربيعة...». فارتفعت الزغاريد، بينما انشغل بعض الرجال بنصب خيمتين، امتلأت واحدة «بحفظة» القرآن الذين حجوا من كل بلدة قريبة أو متاخمة، يبدو أن الخبر انتشر بسرعة البرق، وينتقل كالعدوى، فارتفعت قراءتهم الندية الجماعية على عادة أهل المغرب الأقصى تُبدِّد حزن القلوب، وتؤنس النفوس التي قست مع قسوة الأيام، وتصالح الصدور مع الأحوال الربانية، والناس خاشعون صامتون، فيهم الباكي،

كخالتي البتول، وزوجها بوشعيب، أما والدي فكان يقرأ معهم بطريقة أثارت استغرابي، حتى قلتُ في خاطري: «إن من الإيمان ما تنقله التربية، ومنه جرعة نولد بها في الحامض النووي». في عقلي هذه المرة لم يعترض جلال، صوبت نظري جهته، فبدا حزينًا مطرق الجبين... يتآكل من الداخل في صمت رهيب، تعكسها نظراته الضائعة، وأنفاسه المتسارعة.

أخرجت عتيقة وأبوها لعبًا وطفقت توزعها على الأطفال وهو يقفزون فرحًا، وقدمت بعض الهدايا للنساء عبارة عن جلابيب وأثواب، واستفاد الرجال من أثواب وأحذية، فسرت الفرحة في القرية...

قبل الغروب، ارتقى الكل التلة حيث المقبرة، في جمع مهيب، فوجدنا القبر قد أحاط به نبات مزهر وأزهار شقائق النعمان، وحُوِّط بشجيرات قصيرة وبالغنباز وطلي بالجير، وثم وضع صحن ماء ترتوي منه الطيور، وورف له شاهد مصقول كتب عليه الاسم كاملًا بعد البسملة وتاريخ الوفاة، ظننت الأمر من فعل أهل أمي، حتى جاءت خالتي البتول بالخبر اليقين... قالت إن ولد الجاري هو فعل ذلك، لوحتُ له بيدي، فلوح لي بوجوم، علم أبي مني مَن هو فقصده، وجلسا معا على صخرة كبيرة، تجاذبا أطراف الحديث، فضحكا معًا ثم بكيا، وضحكا ثانيًا وتعانقا، فانفرجت أسارير ولد الجاري، وعاد مع أبي إلى المقبرة يسحب معه الشيخ من يده وهما يمشيان، قرئت الفاتحة وارتفع الدعاء، ثم قفلنا عائدين، على الطريق همستُ

لأبي: «كيف أقنعتَ ولد الجاري..»؟ ابتسم وبرق عيناه ومشط لحيته بأصابعه وقال: «الرجل مجروح في كبريائه، جبرت كبرياءَه... قلت له إن ربيعة الشهبة، ما أحبَّت غيرك، وهروبها كان من بطش أبيها، وظلم البلدة، وبؤسها... وليس منك..». قال لي الرجل: «كيف...؟ وهل تقول المرأة مثل هذا الكلام لزوجها...»؟ قلت له: «يا رجل كنت أبحث عن أسباب هروبها... فباحت بما هو أخف ضررًا على نفسي كرجل..».

آه... قليل من الكلام قد يبدد كثيرًا من الآلام... اللغة قادرة على تغيير خرائط الوجدان...

قالت عتيقة ونحن على الطريق: «عليَّ أن أحول الهضبة الحمراء إلى الهضبة الخضراء... الأموال موجودة... لكن...» وأردفت بغنج ودلال» يلزمني أولا زوج ويكون محاميًا... فالإجراءات صعبة... والإدارة بالمغرب ترفع الضغط..».

ابتسمت وقلت: «متى تبدئين في الإجراءات...»؟

قالت بحماس: «فورا... نوثق عقد الزواج... كل الأطراف موجودون... أبي الذي رباني... «مارك»... عمي حمدان... قبل أن يسافروا».

قهقهنا معًا حتى عجب مَن كان معنا في السيارة... وانطلق الموكب يتبعه الصغار فرحين حتى أصابهم الإعياء فتوقفوا وسط الغبار وهم يلوحون لنا بأيديهم الضعيفة التي تحمل لعبهم ببراءة وابتسامات عفوية...

لستِ يا أمي أصلَ هذا العار في الهضبة الحمراء... العار في التراب والماء والنفوس، في التربة التي لا تُنبت غير الشيح، وفي الماء الذي جرى بعيدًا عن مجاري الهضبة، وفي النفوس التي قتلها الفراغ والجوع... لستِ أصلَ العار... أصله بعيد جدًّا، في مكانٍ ما مكيف وتحيط به الخضرة من كل جانب، الأشجار الظلال، وتجري فيه المياه طول العام، ويأكل الناس حتى يشبعوا فتأكل من فتات موائدهم الآلاف... يا أمي... العار... أصله... هناك... هناك... حيث يبيت الليل خارج الجدران، حيث يختلط النهار والليل، حيث يعم الصمت من نوع آخر... وراء الأسوار العالية الغارقة في اللبس والسحر...

19 ◀

بعد أيام جاءني جلال حزينًا منهكًا يجرُّ ظله الكئيب مساءً إلى شقتي بعمارة درب المخزن، كان أبي ما زال معي، وقد تزوجتُ بعتيقة، وعاد زوج أمها مارك إلى إنجلترا...

قال أبي بعدما سحبني من يدي بعيدًا: «انتبه لصاحبك... يحمل ما لا يُطاق».

قالت عتيقة وهي تهمس في أذني بقلق بالمطبخ: «حبيبي.... صديقك جلال... ليس هو جلال الذي أعرفه... انظر إلى حالته الرثة، لم يغير بدلته حتمًا منذ أيام... لم يحلق وجهه، وياقة قميصه متسخة... كأنه يبيت في العراء... هناك خطب ما... حاول أن تجعله يتكلم..».

فعلًا لم يكن جلال الذي أعرفه، كأن روحه تشظت، وشاخ قبل الأوان، عيناه شاحبتا البريق، وأحاطت بهما هالة زرقاء،

وانتفخت الجفون، مضطربًا ينقر برتابة على الطاولة، يتحدث في أكثر من موضوع ولا موضوع يحسم فيه، أشعر به يتربص بزمن البوح، يبحث عن فرجة في القول لإزاحة الثقل الذي أنقض ظهره، وبعثر حياته، يسرح بنظره هنا وهناك، كأنه يؤجِّل قولًا ثقيلًا، عبَّ كلَّ الماء الذي وُضع له، عبًّا سريعًا بلا توقف ولا قطع، امتقع لون وجهه، كأن به شحوبًا من أثر أرق، هزل سريعًا، كأنه لم يأكل منذ أيام، حتى سرواله الذي صار فضفاضًا أكثر من مرة، خفت أن يكون مريضًا بمرض عضال، لم أبادر بالسؤال، بل ترددت في السؤال، تجاهلت الوضع حتى لا أثير مخاوفه وشكوكه، ظللت أنتظر أن يطاوعه العقل والقلب واللسان على الكلام، فقد يكبح العقل البوح فينفطر القلب، ويضطرب اللسان، لا بد أن يأذن العقل، ولا بد للقلب أن يلح ويلح، حتى يلين إصرار العقل على الإخفاء، فيأتي سهلًا سلسًا منسابًا، امتلأت المرمدة بأعقاب السجائر، احتسى عصير الليمون ودلق منه على سترته التي لم تكن مكوية، وطالتها التجاعيد على غير عادته وهو المهوس بالأناقة...

كان مترددًا في البوح بشيء ما، تنهد وعصر سجائره متتابعة وقال وقد وجم وجومًا شديدًا حتى قبح وجهه، وتجعد ما بين عينيه، وصارت نظراته مخيفة: «الكلبة... سأقتلها...».

مندهشًا رددت عليه: «من يا أحمق... أجننت...؟».

لوى شفتيه، وبللهما بريق لسانه، ثم قال مزمجرًا بغضب

وهو منتصب يذرع فناء الشقة جيئة وذهابًا، أقصد «زوجتي العاهرة... تلك... التي ظننتها عفيفة وهي أوسخ من بنات الحانات...

وقعتَ يا صاحبي في أول مفارقة... العقل لم يعد عنان اللسان، تبددت المسودات، وجاء زمن الكلام الذي يصدر عن القلب بلا مزايدات ولا تنقيحات... لم تصِفْ بنات الحانات يومًا بما وصفتهنَّ اليوم... لم يعدنَ مناضلاتٍ في الزمن القاسي... لم يعدنَ أطهر من النساء المزيفات... هذا قولك وأنت ترفع لهن الأنخاب... لن أعاتبك... لن أسجل نقطة ضدك... لأني أعلم أن الحياة لا تحل معادلاتها نظرية جاهزة... الحياة ارتجال يومي للحلول ومفاتيح العبور... سأضحي بالحقيقة من أجل أن أشيد لك جسر سلام روحي... فالذي فيك يكفيك يا صاحبي... صمتُّ... ليس خوفًا... بل مراعاةً للظروف ولحالته النفسية... فاللحظة ليست لحظة نقاش نظري معرفي... إنها الحياة يا جلال... لا تدبر بالنظريات ولا المرجعيات... مرحبًا بك في الحياة الحقيقية... مرحبًا بك في العالم الحقيقي... عالم الخيبات والانكسارات...

كررت كلامي باندهاش: «تقتل مَن يا أحمق... مهما فعلَتْ لك لن تكون المتقاضي وممثل الحق العام والقاضي في الوقت نفسه...».

انتفض غاضبًا وضرب بقبضة يده المائدة، حتى دلق العصير

وقال بحنق: «يا إبراهيم... راضية تخونني مع البستاني... صار يأتي يوم أغيب... ويدخل الفيلا لمدة من الزمن..».

قلت بعجب: «وحارسك ماذا يقول...»؟

ساخرًا بابتسامة شاحبة قال متلعثما: «ذاك شيخ لا يرى شيئًا... سأقتل العاهرة الخائنة...».

ـ كن ذكيًّا إن تأكدتَ طلقها هي الخاسرة الكبرى... وانتهى الأمر... لكن لا بد من اليقين.

ـ يقيني هو عيني... رأيته في غرفتها... رأيته يقفز على السور... رأيتها تلوح له بيدها من الشرفة.

ـ وليكن... طلقها وأعدها إلى أهلها ذليلة صاغرة...

ـ وعاري...؟

ـ عارك...؟ يا جلال... تلك أسطورة... أليس هذا كلامك...؟ ستصير زوجتك من الماضي... والماضي يعرقل التقدم نحو المستقبل...

ـ سأبوح لك بشيء... لا شيء يُدفن... الماضي فينا، في أحلامنا، في كوابيسنا، في لبسنا، في طعامنا، في كل شيء... هذه العاهرة جلبت لي العار...

ـ أي عار...؟ تذكر كلامك ستغدو هي من الماضي... ونحن نملك الحاضر...

ـ العار لا يموت... إلا بالدم...

ـ هذا كلام رجل من قبيلة.

ـ يرد عليَّ بتلعثم وعيناه تدوران دون استقرار مضطربًا: وأنا لم آتِ من السماء... في دمي قبيلة ولو أنكرتُ...

ـ يا جلال... القبيلة تعرقل المضي إلى الأمام...

ـ ماذا أفعل... ظننت نفسي تخلصتُ منها... لكنها تسكن جلدي...

تنظر إليَّ عتيقة، أغمز لها ثم أدنو منها وأهمس: «سأتأخر... جلال... مضطرب... عليَّ أن أظل معه..».

تبتسم في وجهي، تلوح لجلال، جلال يرد عليها التحية وهو يقضم أضافر أصابعه، أشعر بخيبتها، أهزُّ لها رأسي، تقول لي همسا ونحن على الباب: «لا تفارقه... يبدو أن الأمر ثقيل جدًّا عليه...».

على المشرب، أرى جلالًا تائهًا، يبدد همه في كأس... أقصى ما يمكن أن تفعل هو تأجيل مؤقت للأزمة، وقد يُنقَل السحر على الساحر، فتؤجج نار الغضب، وتدلل ما كان يبدو عند الصحو مستحيلًا... الكأس قد ترفع الحواجز عن الذات في لحظة جموح، وتغتال الجبن والحذر، فكما هي قادرة على منح الفرح المزيف نشوةً، فهي قادرة على تزييف الإرادة، وتبديد المخاوف، وتبسيط المصائب... فيمَ يفكر الآن جلال؟ حسب تجربتي... إنه يدبر أزمته داخليًّا، ينتقل بين عدة احتمالات، تتناسل الأسئلة الحارقة في عقله، فلا يجد لها جوابًا، فيهرب

من جحيمها، بجرعات متتابعة، هل فعلًا خانته زوجته مع البستاني...؟ حتمًا هو الآن يقيم مقارنات لاعقلانية، يقارن نفسه بالبستاني، يسائل فحولته، يسائل خبايا سريره، يفتش في متعه عن خلل فراشه، آه... سيرمي بنفسه في الجحيم، في بحر لا يجيد السباحة فيه، لو قارن سرير الزوجية، بسرير البغاء... سيصاب بالرعب... ماذا لو أرقه السؤال الحارق... أتريد زوجتي متعة كمتعة المومسات المحترفات...؟ أيكون البستاني كشف لها أسرار الجنس المخفية...؟ ستقتله هذه الأسئلة الخرقاء...

لا أنخاب هذه الليلة، ولا منصة ولا خطاب ولا شعر، وحدها نادية ساقية المشرب، تفتش في حزنه عن فرجة ضوء، تقول عبارة هنا وهناك، ولا يصلها الرد، كم احتسى من كأس...؟ لا أعلم... يكنس المشرب بيده غضبا فيقذف بقنينة بعيدًا، يسود الصمت، يكسره بكاؤه، نحيبه، ينظر إلى نادية بنظرات زائغة ويقول: «يا نادية... أنا عاق... أنا «مسخوط» أمه... أنا لا أستحق حتى السلام... أنا عفن... أنا كلب... بل الكلب أحسن مني..».

تربت نادية على كتفه، تخرج من المشرب، تسحبه إلى طاولة، بعدما أوحيت لها في الأمر، أتبعه... نجلس نحن الثلاثة... تخفف الإضاءة، فتطفئ المصباح المسلط على رؤوسنا...

أقول في نفسي بنوع من المرارة وأنا أرى هذا الانهيار المفاجئ: «سقط الصنم مدويًا... بلا فؤوس ولا معاول... أسقط

الصنم الصنم..». أشعر بخبث يتسلل إلى قلبي، فأضع حدًّا لهذا التداعي غير البريء، فهو صاحبي على كل حال، وقد كان أكبر من صديق، وأقل من أب... قبل أن أجد له مكانه الحقيقي في خريطة العلاقات... لا مكان للوسط... الوسط اختيار مؤقت... الوسط اختيار الجبناء أو الدهاة أو المتربصين بكفتي الميزان...

يحملق فيّ ثم يحُضُّني على القول بعنف وهو يرجني رجًّا: «أريد أن أسمع منك... أنت الحقيقة... كما فعلت آخر مرة... لا تحمل لي همًّا... سأتحمل أي ضربة منك... ضرباتك لا تُفقِد الوعي... ضرباتك تجعلني أستفيق يا صاحبي..».

أخجل من الخاطر الذي مر في نفسي، قبل أن يتكلم، أضمه بقوة وأقول له بشدة وحزم:

«اسمع يا جلال سأقول لك ما ترددت في قوله سنين، أنت تزوجت بطريقة غريبة، حتى إنني لم أر زوجتك ولا أعرفها... لم تؤمن بالحب، سميتَه إلفًا واعتيادًا للذة نفسية أو جسدية، والحقيقة الحب هو صمام الأمان للبيوت حتى لا تخرب، ولا يتسلل لها الضجر والملل، أنت جئتَ بفتاة من مكان ما وعلَّيْتَ الأسوار، وغلَّقْتَ النوافذ، ووضعت كلبًا شرسًا على البوابة، واستعنتَ بحارس عجوز لتضمن ألا يدخل الشيطان بيتك، والأمر أكبر بكثير من ذلك... كنتَ تدافع عن الحرية، وتترك مبادئك وأفكارك عند العتبة، كنت تدافع عن حرية المرأة، وفي بيتك أمة من زمن الحريم... تظن نفسك هيَّأت لها كل

شيء: الطعام الباذخ، الفراش الوثير، وكل وسائل الترفيه، لكنك نسيتَ شيئًا مهمًّا، لم تكن معها... ربما لا تقاسمها حتى حديثًا قصيرًا... ربما تقاسمها الفراش من باب الواجب والكفاية حتى لا تركبها شهوة جامحة فتنظر لغيرك... أنت مخطئ... الزواج ليس معاشرة جنسية فقط... فحينما تخبو عند الطرفين شهوة الفراش يجمعهما إلى الأبد دفء العشرة والمودة والسكينة والحب الذي لا يخبو ويعوض أي نزوة أو شهوة... منطلقك كان خاطئًا... والنتيجة أن أمتك أقصد زوجتك تطلعت إلى البستاني إن صحَّتْ روايتك... ربما تريد رجلًا تشعر معه بالأمان والدفء، لا قفصًا من ذهب وترف لا يعدو كونه لا شيء بالنسبة للمرأة»..

نظر إليَّ فاغرًا الفم، جاحظ العينين، احتسى الخمر من القنينة مباشرة، زفر وشهق بقوة كثور هائج، مسح شفتيه بكم قميصه، وقال بحزن: «لماذا صمتَ كل هذا الوقت...»؟

دلف نحو دورة المياه، تبعته نادية... أشعلت له سيجارة حين استوى من جديد على الكرسي فقال وهو يمسح مخاطه: «يا مصيبتي... أريد أن أتصالح مع أمي... لقد جاءت أكثر من مرة ولم أفتح لها الباب... كنت أريد التخلص من كل ما يمت لي بصلة بالماضي... بتاريخ البداوة والبؤس... ظلمتُها... ظلمتُها... المسكينة... كنت أرسل لها المال فترده... وتقول عندنا رب... أريد أن أتصالح مع أمي...».

ينتحب حتى أثار فضول رواد الحانة، تضمه نادية إلى صدرها وقد اغرورقت عيناها وتقول له بحزن: «العن الشيطان أولًا... حتى لا يدفعك إلى ما تندم عليه، لكل غمٍّ فرجٌ من ربك، فدعه يدبر لك الأمر.... يا إبراهيم لا تدعه وحده... أرجوك... أرجوك...».

20 ◀

لم أكن أعرف منزل جلال بالضبط، وهو عبارة عن فيلا ممتدة الأطراف، قصدتُ المكتب أولًا، فوجدته منهمكًا بالعمل، وقد انحنى برأسه بين دفتي ملف، أثار الغبار حساسية لديه، فطفق يعطس، ناولته منديلًا ورقيًّا، مسح مخاطه وتوقف عن العمل، أشعل سيجارة، أخرج قنينة سكوتش صغيرة من جيب سترته الداخلي، تجرع جرعتين وامتعض من شدة المذاق، ناولني القنينة فاعتذرت، تمعن في جيدًا وقال وهو يذرع المكان جيئةً وذهابًا وقد عقد أصابعه وراء ظهره:

ـ عليَّ أن أذهب للبيت... أستحم وأغير ملابسي... لا أريد أن أرى تلك العاهرة... لكني مضطر...

مرر أصابع يده على شعره فشعرت بقلقه وخوفه وتردده، فدنوتُ منه أسوي ربطة عنقه وياقة قميصه وقلت:

ـ لو لم تخرج باكرا لأخذت حمامًا عندي... وأعرتك بعض ملابسي...

ابتسم ابتسامة عابرة وما انفكَّ يمرر يده على فروة شعره وقال بارتباك:

ـ أنت أطول مني... وأنا حزامي أطول من حزامك... لا بد أن أذهب للبيت... ربما الفحل يرتع في سريري مع العاهرة...

تفتقت في عقلي فكرة، فقلت له بثقة:

ـ لمَ لا ننصب لهما فخًّا... ويكون مصيرهما السجن؟

انتفض غاضبًا وزمجر، شفتاه ترتعشان وقال بعدما تجرع جرعة أخرى من قنينة السكوتش التي لم يُعِدها إلى جيب سترته هذه المرة، بل وضعها على المكتب:

ـ أجننت يا إبراهيم...؟ تريديني أن أصير أضحوكة بين الناس؟ أتريديني أن يركبني العار أينما حللت... تشير الأصابع إلي في الخفاء، ويتهامس الناس حول مصيبتي وراء ظهري...؟ لا... أريد أن أضبطهما متلبسين وأصورهما... ثم أفضحها عند أهلها... ونربي البستاني الكلب بأيدينا...

ـ قد يكون قوي البنية ولا نقدر عليه...؟

ـ فكرت في الأمر... عندي حقنة مخدرة، ثم سنكبله...

ـ أجِّلِ الأمرَ إلى يوم آخر... أرجو... ولتمض الليلة في شقتي... خذ حمامًا دافئًا وغيِّر ملابسك...

ـ دعني وشأني... لن أبيت إلا في بيتي... أتريدني أن أمنحهما ليلة أخرى...؟ لا... لا...

ـ اشتغلت لمدة على عدة ملفات، خرج زبائن ودخل آخرون، وهو منعزل في مكتبه لا أعرف ما يفعل غير أنني أسمعه يحاور نفسه أحيانًا بصوت عالٍ، وأحيانًا يعمُّ السكون المكان، اعتاد المسمار النادل أن يأتينا بفنجاني قهوة، لم يأتِ اليوم، طلبتُ طعاما لي وله عبر الهاتف... وغفوت على الأريكة...

صحوت مذعورًا ورجفة تملء صدري، كانت تلك عادتي إن نمت بعد الظهر، أستيقظ مكتئبًا، عرضت على جلال المبيت عندي، فأصرَّ على الذهاب إلى فيلاته رغم إلحاحي، لكن ما إن خطوت خارج المكتب، ومشيت في الشارع حتى داهمتني الوساوس، وخشيت أن يقوم بعمل طائش، خصوصًا وأنه احتسى قنينة «السكوتش» عبًّا سريعًا، والخمر كبريت الغضب، وفتيل الشيطان لإضرام النار في الأخضر واليابس، فهي تذلل في عقل الشارب طرق الشر، وتهون عليه كل فعل يبدو في حالة الصحو مستحيلًا، وقد تحمله على القيام بجريمة شنعاء لا يكتشف بشاعتها إلا عندما يتبدد أثرها في العقل، فكما تصنع السعادة، قد تصنع الشقاء.

قفلت عائدًا، فوجدته ما زال يحتسي الخمر، وأعقاب السجائر في كل مكان، والمكتب غارق في سحابات الدخان،

فتحت النافذة، نظر إليَّ بعين زائغة، وقلب منفطر وقال: «أعُدتَ يا إبراهيم..»؟

ثم قهقه كطفل صغير، واختلط ضحكه لحظة ببكائه، ارتمى في حضني وأردف: «رجاء... لا تتركني وحدي...».

جلسنا زمنًا لم أحدده، وأنا أتابع تعابير رجل لم أكن أعتقد يومًا أنه سينهار لمجرد أن امرأة خانته، خصوصًا وأن لا تاريخ له معها، ولا عشق ولا ذكريات، هي فقط بمثابة زوج تزوجها على الطريقة التقليدية، فعجبت للنفس البشرية وتقلباتها، واستقر في عقلي أننا لا ندبر حياتنا وأزماتنا بالنظريات وبأفكارنا الجاهزة، ها هو جلال عاجز عن أن يُنزِل للواقع أفكارَه المتنورة، ويطوق بها أزمته، ها هو عاجز أن يفتي في أزمته النفسية، ولا أحسبها وجدانية، فهو لا يحب هذه المرأة، وإنما غضبه غريزي ذكوري لا أكثر، قديم قدم البشرية، رفض تقاسم المرأة، الغريب أنه كبر في عيني أكثر وهو الصاحب والصديق الآن، كان يلعب دور نصف إله، فكان أكثر من صديق، وأقل من أب، ها هو يعود إلى طبيعته البشرية بهوسها وضعفها ونقائصها ووجعها وآلامها، فيغدو الصديق والإنسان الذي يضع قدميه على أرض النقائص والمفارقات...

هوت الشمس نحو مهدها اليومي خانعة لقدرها السرمدي، كأن حِبالًا تجرها جرًّا نحو لجة البحر، وهي تقاوم، فتمشي نحو مصيرها وئيدةً حزينة، تشيعها الطيور والسحابات الحالمة في

صمت جنائزي وهي تنشر.

نعم... الدار البيضاء غدت تخيف ليلًا، ألقي نظرة من النافذة، أجد حارس العمارة البدوي الذي سُحل أكثر من مرة لتحرشه بالنساء، قد تغير شكله وهندامه، حلق رأسه وأطلق لحيته، وفي يده سبحة، ويجلس على كرسي بهدوء مطرق الجبين، غير عابئ بما يجري حوله، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، ولا تثيره عابرة فاتنة مثيرة، ارتفع أذان المغرب، فالتحقت به زمرة من الشباب، عجبًا ما الذي ألَّف بينهم، وكانوا على طرفي نقيض، ففهم اللص والمتعلم والتاجر والفاسق والعاطل...

ألححتُ على جلال أن نذهب إلى شقتي، فخضع في الأخير مشترطًا أن نعرج على حانة «كوخي» ونحتسي بعض الكؤوس قبل الذهاب، بالنسبة لي كان الأمر صعبًا، فقد غدوتُ أخجل من حالي سكران وأبي في الشقة، لم أجد بُدًّا من مجاراته على مضض.

في الحانة كان الكل يتابع خطواته باستغراب وحذر، وهو يحتسي الخمر ويغمغم ويكلم الكأس كلام الأحياء للأحياء، وأحيانًا يسب ويشتم كل مَن صوَّب نظره نحوه، كان قاسيًا فاحش اللسان بذيء المنطق، نادية ولأول مرة ناداها بما لم تتوقعه من حكيم الحانة والمناضل المدافع عن قضايا المرأة: «تعالي يا عاهرة... اسقيني كأسًا... واغربي عن وجهي...».

ابتسمت الساقية له متظاهرةً بعدم الاكتراث، وسقته ولم

تُبدِ امتعاضًا، لكنها لأول مرة أشعر بها مجروحةً، كانت تأتي الشتيمة من أي كان ولا تقيم لها وزنًا، لكن من جلال... الأمر ثقيل ومسَّها في عمق كبريائها، السكارى يهذون... يقولون ما لا يؤمنون به، إلا جلالا بالنسبة إليها حكيم في سكره وصحوه،

لن تصدقني الشابة، لو قلتُ لها: «نحن من صنعنا الصنم... جلال... حمَّلناه أكثر مما يطيق كبشر، وحين استرجع بشريته بضعفها وآلامها، حاكمنا الصنم بدل الإنسان... هو الضحية يا سيدتي... هو مَن في حاجة اليوم إلى صنم... إلى مَن يسمع آلامه وهوسه ويرمم شظايا روحه... نادية لا تكوني قاسية معه... إنه فقط يتنفس هواء الحياة، بعدما نزل من جبال أوليمبوس...».

سبق وأن سمعت هذا النداء من أكثر من سكير وعربيد، لكن أن تسمعه من جلال، كان كالرصاصة في القلب، رأيت الحزن في عينيها وهي تعبُّ النبيذ عبًّا... رأيتها تختبئ لتبكي، ما رأيتها يومًا باكية... آه هل نبكي حين تسقط أنصاف الآلهة يا نادية؟

نهض نحو دورة المياه مترنحًا تكاد ساقاه تخذلانه، وتوقف عند الطاولات وهو يهرج بغرابة كمهرج سيرك مخرِجًا لسانه لهم، ويقلد مِشية البطة، فاكتفى السكارى بالضحك والتظاهر بعدم الاكتراث لما قد يحسبه غيرهم سخريةً وتهكمًا وهزؤًا بهم، وعاد هو يسب، وشتم المنظفة: «يا قوادة... ألم يعفُ الله

عنكِ بعدُ...؟ لحمك سيكون شهيًّا على نار جهنم يا شيطانة...».

احتجَّت المنظفة التي كانت تلقاه مرحِّبة، وهو ينفحها النقود، ويساعدها على شراء كبش العيد، وكلما أرادت منه مالًا، أتت بوصفة طبية، أو كذبة محبوكة، فبكت وصُرعت وهي وجسدها يهتزُّ وقد أزبد فمها، اكتفت مومسات الحانة بإدخالها إلى غرفة عاتمة وراء المشرب وساد السكون، الليلة لا أنخاب ولا كؤوس من كرم جلال، ولا موائد طعام، ولا فتيات يأخذن منه ما شِئن بقبلة على خد، وكلمة إطراء على الملأ...

كأن نادية ساقية المشرب، أفشت السر، فقد كانت علامات التعاطف بادية على أصدقائه، وهم حائرون في كيفية المواساة في مثل هذه المواقف، حاولت ألا نخرج إلا بعد متصف الليل... يا للأسف ظللنا لآخر الليل وأصر في طيش وعربدة ورعونة أن يذهب لبيته، اتصلت بعتيقة، شرحت لها الموقف، ولم تعترض رغم أن نبرة صوتها كانت تحمل أثر اعتراض صامت.

فتح العجوز بوابة الفيلا وهو يزحر، انسابت سيارته إلى الداخل، رفع عينيه إلى الشرفة، الضوء ما زال مضاءً، دنا منا العجوز وقال: «سيدي جلال... لم أعد أرغب في العمل معك... ابحث عن حارس آخر... لقد شِختُ وهرمتُ... ولم أعد أطيق البرد...».

نبح الكلب الشرس، لم يُعر جلال اهتمامًا لكلام الشيخ، قال

له فقط: «اذهب إلى الجحيم... لا تصلح لشيء...».

صعد إلى غرفته، فاختليتُ بالعجوز، الذي كان منهكًا قلقًا، جلست إلى جانبه تحت سقيفة وقلت له:

ـ رجاء يا عمي جد طريقة لإسكات هذا الكلب الشرس... لقد أزعجني تفاحه الذي لا ينقطع...

ابتسم الشيخ في وجهي ونهض متهالكا، يجر خطاه إلى عرفته، بعد حين يلد الصمت، وانقطع نباح الكلب:

شعر العجوز بدهشتي فقال وهو يجلس متهالكا:

ـ لا كلب هنا... إنه فقط صوت نباح مسجل على شريط... فجلال يكره الكلاب الحقيقية... ولا يحب أن يتوقف النباح... أنه يغضب بشدة إن يسمع النباح... أستغل فقط غيابه لأرواح من لعنتها وضجيجها اليومي...

ـ تقصد لا كلاب هنا...

ـ نعم... يا بني... هو يحب النباح لا الكلاب... يتوقف أحيانا هناك... طويلا... قرب البوابة... كي يسمع نباحها كأنه يسمى بذلك... وأحيانا كثيرة يلعن ويشتم الكلاب ويمضي...

ـ يا عم... أتعرف ذاك البستاني الذي يقفز على الجدار ويدخل الفيلا...؟

حملق في العجوز مندهشا، ثم ضحك حتى غايته كحة حادة، يحددها بتجرعه جرعات متقطعة من قنينة ماء ثم قال بوهن متقطع الأنفاس:

ـ يا رجل لا أحد يقفز على الجدار... هو يرى ما لا أراه، ويكلم من يراه وحده، كنت أظن أن الأمر من الخمر... لكن الأمر فيه سر ما... كأن الرجل على علاقة بالعفاريت...

تناهى إلى أسمعانا، صوت صراخ وصخب في الغرفة، كان جلال حتمًا في جدال مع زوجته، لكن الأمر لم يُثر انتباه العجوز، ولم يحرك فيه قيد أنملة، بل ظل هادئًا وهو يعبِّر عن تبرمه وضجره، أردفت وأنا أتابع بعيني ما يقع في الغرفة:

ـ يا عمي... إن جلالا يقول إن البستاني يقفز على الجدار في غيابه ويأتي للقاء زوجته.

نظر إليَّ العجوز بعجب وقهقه حتى شرق فسعل بألم وقال:

ـ يا ولدي... وهل لجلال زوجة حتى يأتي إليها البستاني... إني أسمعه يحدث نفسه كل ليلة، ويقول لي عينكَ عليها... لم أعرف ما يقصد... كنت أظنه يقصد الفيلا... أو شيئًا آخر... وهذه الأيام أصبح كالأحمق يرى ما لا يوجد... يا بني... لا بستاني يأتي إلينا... حتى إن الحديقة غير مشذبة، والمسبح ضحل لم يُنظَّف منذ شهور...

أحسست بالأرض تدور تحت قدمي، وتبدد ما كان في عقلي من أثر خمر، وألححتُ على الشيخ حتى كدتُ أخنقه دون أن أشعر:

ـ أجننتَ يا شيخ...؟ هو متزوج وزوجته من الريف...

ـ يا بنيَّ... والله ما رأيتُ معه امرأة هنا... ولم تزره يوما غير أمه التي لم يستقبلها... وعادت من حيث أتت والدموع في عينيها، فكرهته منذ ذاك اليوم... الأحمق... رفض أن يلقي ولو نظرة عليها، وكان الجو باردا، وظلت على الأسوار ترتجف حتى أدخلتها الغرفة، ماذا فعلت له حتى يتنكر لها بهذه القسوة...؟ صديقك شيطان... والله الشيطان أرحم منه... لا يصلح للمعاشرة... ماذا تنتظر ممن لا خير فيه لأمه الذي حملته تسعا وولدته وجعا، وأرضعته سهرا... سأرحل... والله لن أستمر معه... صبرت طويلا... هو يعيش وحده صدقني... ويرى كل خيال على السور ظلَّ رجل يتربص به... إلا إذا كان متزوجًا من جنية...

انتفضت واقفًا، أسرعت نحو الغرفة، وجدت جلالا قد وضع رأسه بين يديه وهو يبكي ويردد:

ـ العاهرة هربت معه... العاهرة هربت معه...

ـ من يا جلال...؟

ـ زوجتي...

ـ يا جلال... أنت غير متزوج... تلك امرأة صنعتَها فقط في عقلك... هي من نسيج خيالك لا غير.

نظر إليَّ نظرات قاسية، ودنا مني وهو يزمجر غضبًا حتى انتفخت أوداجه واعتصر الدم في وجهه، فتح دولاب ملابس وقال:

ـ هل تريد أن تقول إنني أحمق...؟ وهذه ملابس من...؟

ـ ملابس نسوية... لم تُستعمل أبدًا... ما زالت كما هي...

فرك عينيه، ثم دلك رأسه، وتمدَّد على السرير، وهو يردد:

ـ هربت العاهرة مع البستاني... هربت... هربت... هربت الكلبة... كلهن عاهرات... حتى أمي... أتعلم يا جلال...؟ مات أبي بانفجار في المعدة... ولم تتأخر أمي لتُظهر وجهها الحقيقي، لقد وجدت رجلًا في سريرها... هرب الكلب... كدت أقتله... أتعلم ماذا فعلَتْ...؟ بكت... انتحبت... ثم أرادت أن ترمي بنفسها في البئر... رحمتها منعتها... لكني ندمت... يا ليتني تركتها تموت... هل أنا عاق...؟ لا أريد أن أراها... أرسل لها النقود فتردها بكبرياء... أي كبرياء لها... العاهرة...؟ كنت فتى يافعا عاجزا... يرى أباه يموت كالكلب على الطريق، عدت بجثته على ظهر بغل إلى الدوار، وبعد شهور أجد رجلا في سرير أمي... ربما سممته متآمرة مع عشيقها... ليلتها... نعم ليلة الفضيحة... لم تنبح الكلاب... لمَ لم تنبح الكلاب...؟ إنها الكلاب تعرف الرجل الذي كان في سرير أمي وتعودت على رائحته... ألفته... ربما كان الوغد يأتيها وأبي حي... كان على الكلاب أن تنبح باكرا... صمتت... تواطأت... لكنها كلاب...

أناجي نفسي وحيرتي تعمق حسرتي «آه... جرحه أعمق، وخرائطه الداخلية أكثر فوضى... يا صاحبي... أهذا هو أصل الداء...؟ تمهل علي فمازالت طري الجراح...» وأنعش بوحه

الجراح، وكادت طاحونة الماضي المتوحشة أن تدور مرة ثانية لتسحق السلام الذي وجدته بعد عراك مع الذات والانكسارات... تذكرت أمي في حضن ذاك الرجل... وتذكرت «الحوفار» وهو يحتكُّ بي وأمي تفتش في دبري عن أثر جريمة، فضحكتُ... وقلتُ في خاطري: «يا صاحبي... ستنسى... امنحها السلام... وامنح نفسك السلام... هل فعلًا ارتكبت خطيئة...»؟

بكى بكاءً مُرًّا... نظر إليَّ بقلق، نهض متهالكًا وارتمى في حضني وهمس في أذني: «يا صاحبي ألم تنشر ديوانك بعدُ...؟ نحن في حاجة للشعر لنخرج من الرتابة والقلق...».

هذا هو صاحبي... يا عالم... يعلم أن الشعر وحده قادرا على ولوج المناطق المظلمة في أنفسنا ليشعل فيها شمعة، ثم ينتظر... يتربص بلحظة فرح ليفتح للروح نافذة على الرجاء.

غفا كطفل صغير على سريره البارد، لا عبق فيه لامرأة، جُلتُ مرافقَ سكنه، أفتش عن أثر حياة مشتركة، عن بقايا عبور أنثوي، فالمرأة لا تعبر خفية، دائمًا تترك أثرًا في الأجواء، المكان بارد موحش، الحديقة فوضى غزتها الأعشاب الطفيلية، والأحراش، والمسبح ماؤه ضحل، آسن تقفز فيه الضفادع وتنق، لا أثر للمسة امرأة لا في الستائر المغبرة الممزقة، ولا في المطبخ المتراكم الأواني المتسخة، أكثر طعامه معلبا، معلب وأكلات جاهزة، الغبار يملأ الأرجاء، النوافذ لم تُمسَح وتُغسل منذ مدة، صاحبي... كان يعيش مع امرأة صنعها من خياله،

وفقَ مقاسه ومعاييره، ورغم ذلك، خانه الخيال والظل... صاحبي... يعيش مقسَّمًا بين عالمين...

حان دوري... دوري الآن أن أملأ الشروخ وأرأب الصدوع، وأحمله خارج منطقة التيه والضياع... وحدي لن أستطيع... سأحتاج إلى عقل حكيم ويد ماهرة مختصة.

تذكرت أمي حين رأته أول مرة أحبَّته لكنها قالت بتحفظ غريب: «فيه شيء غامض... ليس هذا الرجل كما يبدو» وتناسَتِ الأمر وهو يُغدق عليها الهدايا والعطايا، ويتوِّجُها بسيارته التي زينها، حاجَّةً عائدةً من الحج وهو يضغط على بوق السيارة بقوة، حتى خرج الجيران بدرب المخزن، وزغردت النساء، وتحلَّق حولها المهنئون والمهنئات، فقدَّموا لها التمر والحليب... كانت سعيدة جدًّا... لأنها غسلت الذنوب، ولأنها تُوِّجَت حاجَّة بين الدروب... فأحبَّت جلالا... جلال نفسه الذي كان لا يريد أن يرى أمه أمام فيلاته، حتى لا تكشف أصله وجذره، هو نفسه العطوف مع أمي القاسي مع أمه...

هو صاحبي وعليَّ أن أصوب بوصلة عقله... فأنا لا أتخلى عن أصدقائي... سأرفع له الأنخاب حتى تشرق شمس عقله وتبدد ظلمة الروح، سأستمع إليه يلقي قصيدةً أو خطابًا حتى تلتئم شظاياه ويعود إلى الحياة من بوابة الحياة الواسعة بخيباتها وانكساراتها...

كان أكثر من صديق... وأقل من أب...

منذ هذه اللحظة غدا أكثر من صديق وأقل من أب...

هو صديقي يا عالم...

علي أن أخطو معه بصبر، غير متردد تغمرني نشوة الرحلة والرفقة خارج هذه الخرائط المبعثرة في عالم صاحبي الذي اختلت بوصلته، لا أملك أي يقين... لكني أملك جذوة الإرادة... الإرادة هي زادي في سفر لا أعلم منعرجاته العديدة...

علي فقط أن أكون معه...

أن يبكي في حضن أمه... سر من أسرار البهاء والعزاء...

ما أجمل البكاء في أحضان دافئة... أليس حضن الأمن الأدفأ لنا في صقيع خيباتنا...؟ ومحظوظ من كان له دفء امرأة أخرى يبكي على صدرها ليحاصر وجع الانكسارات...

سأعمد جلالا بضياء الطفولة، علها تبعث فيه الحنين لماضٍ كان يهرب منه، قد يكون الدواء مما نهرب منه، فالبكاء في أحضان الأمهات... صلاة سكينة للقلب والروح والعقل... أن يتصالح مع الذكريات المؤلمة... أن يروضها قبل تقتله... أن يمضي في الحياة دون أن تقوض الآمال والرجاء...

عليه أولا أن يتعلم الصفح والغفران... تلك بداية التخلص من الغضب والحقد... وحينها سيرى العالم كما لم يرَه من قبل...

واعتزل الحياة في بيت الطفولة، فاعتزلته دنياه القديمة

بأجراسها وصخبها وفرسانها وحمقاها...

تمر السنون... تنسى الأماكن جلالا، وينسى جلال عاداته وحياته الصاخبة، تنساه الأنخاب والمنصات... تنساه دروب الدار البيضاء بجحود ونكران غريبين، حين تضيق به الحياة في عزلة المرض يعود لأشعاره القديمة يرددها بصوت مرتفع، يحاضر لجمهور غير مرئي في الحرية والعدالة والحب... يرافع حول قضية غدت مجرد سطر في وقيقة من زمن تولى.

أما أنا فالتزمت بزياراتي المعتادة له، وغدوت مدمنا على جرعة أسبوعية من الألم والوجع... فحين أعود من زيارته يفتح الشعر لي أسراره...

علي أن أعترف... أنا مدمن على الوجع من أجل الكتابة...

ما أصعب رؤية الرجال منهارين يغلبهم البول، وترتعش أصابعهم من تأثير الأدوية... يشق علي الأمر... فألطف حره بظلال شعرية...

كلما زرته، يسألني عن حالنا الذي لم يعد كما كان وهو لا يدري، عن وجوه غابت، عين حياة لا يدري أنه لم يعد ينتمي إليها، عن صورة فقط ظلت في خياله... عن الأماكن التي لم يعد لها من دفء برحيل الناس...

المكان بارد... محايد... بلا هوية... نحن من نجعله جديرا بالوجود...

القداسة وهم... حتى نقرر نحن...

تمنيت أن أقول له، حين يلح في السؤال: «كثر النعي حولي... لم يعد الأصدقاء يجيدون الحداد ولا البكاء، قد يلتئمون في حفل تأبين... يقولون الكثير... يتناوبون على القول... لو سمع الراحلون وهم أحياء عشر ما قيل عنهم لعاشوا سنوات أخرى... يأتي الموت غفلة فيحصد بلا موعد ولا مهلة، وأنا حولي تتقلص دائرة الحياة، كنا شلة قلة، فصرنا نحصي بعضنا البعض مساء... غدا الغياب يخيفنا... الموت يبغتنا كثيرا في زمن المحنة... يغير الخرائط والعلائق والخطط... يفكك عالما صغيرا... ويختبر الحب والوفاء والبر والصداقات ويكشف أحيانا كم نحن ضعفاء... كم نحن واهمون... الزمن يبدد الألفة مهما طالت... وتبدأ حياة جديدة على أنقاض الحياة القديمة... يصير الموتى مجرد ذكريات عابرة... ثم يتم طي صفحتهم... العديد من الوجوه أفلت وكانت في قمة الإشراق، الجميلات خائفات المرايا، التبرج إجراء مؤقت لمراوغة حفارة الزمن وهي تحفر وتحفر عميقا في الجلد والغضاريف والعظام، حتى تصل الروح، إن شاخت الروح يشيخ ما حولنا ونفقد شهية الحياة... هل الحب كاف لترك الشيخوخة تبور على عتبة البيوت...؟ بيت يغمره الحب لا يعير اهتماما للشيخوخة... لأنها لا تدخله... الشيخوخة ليس قدرا خلويا... الشيخوخة استسلام لحفارات الزمن في الروح... بعض النساء لا يشخن... لأنهن غير معنيات بما تقوله المرايا... بل يرين حياتهم في عيون أحبتهم...».

قال جلال ذات زيارة «أتعلم لمَ لمْ تنبح الكلاب؟» حين رآني عاجزا بجلاء عن الرد، قهقه، ضرب كفا بكف... ونهض بمشقة متهالكا ليقبل جبهة أمه التي ابتسمت فرحا دفءاً وعزاء وبهاء، كأنها في هذه اللحظة ذاتها أعطيت الدنيا وما فيها، وقال منهكا «يا قديسة...» لو تعلم الأم معنى ما قال، لشبعت من كل الدنيا...

جحيم الأمهات جحود الأبناء... جنتهن على الأرض أبناء لم يتنكروا لهن... بعض الامهات يمتن قبل الأوان كمدا بلا علة ظاهرة غير موت الرجاء.

أردف مبتسما وهو ينقل نظراته بفرح «لم تنبح الكلاب... لأنه لم يقفز أحد على الجدار، ما من غريب دخل غرفة أمي...» ثم صمت وحملق في وانخرط في بكاء هستيري، فتداعى لبكائه دمع الأم، فشعر بحزنها ثم قمع لوعته وهو يردف «من أين تأتي هذه الصور المزيفة إلى عقلي...؟».

لم أجد عبارة تشفي غليل حيرته... كان بودي أن أقول له «يصنعها عقلنا الخائف... أو تحملها ذاكرة الجينات...» لكني قمعت القول العابر حرقة في الخيال بصوت خفي يسخر من شطط العقل «وهل للجينات ذاكرة وجدانية...».

قبل أن أنسحب ذاك اليوم حزينا منكسر الخاطر، سألني «أتذكرنا الأماكن يا صاحبي؟».

لأول مرة أرد عليه في خاطري، بعد سقوط الأسطورة، هذه

المرة رحمة به وشفقة عليه:

يا صاحبي... أماكننا القديمة تحصي موتانا... كل نعي... نعي للمكان والإنسان... الساقي يؤرخ للغياب... يصنع أمجادًا... ينصب مشانق أحيانًا... شيخ السقاة وحده... يؤرخ للخيبات... وحين يحكي لا يبكي... أماكننا القديمة صار عديمة المعنى، أو نحن من صار بلا معنى...».

تمدد على الفراش، بطنه تدلت بشكل غريب رغم ضموره، شهيته مفتوحة حد النهم لكنها لا تغطي العظم لحما كفاية، إننا لا نصير أقوياء بالطعام فحسب... بل لا بد من ماء الحياة الذي ينبع من الأمل وإرادة الحبور... أكاد أحصي أنفاسه المتسارعة والمتواترة واهتزاز بطنه، غفا سريعا... أمن أثر الأقراص التي يتداوى بها...؟ أمن وهن يوشك أن يطل من عينيه اصفرارا ومن وجهه شحوبا...؟ تصلني هلوساته... بين ضحك وبكاء متمتما «كفى... كفى... يا صاحبي...».

هل سمع ما جال في خاطري...؟